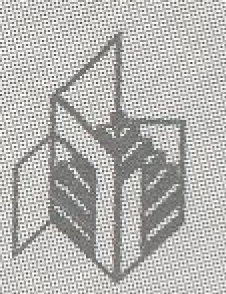
فؤاد مرسى

شباك مظلم فى بناية جانبية





الهيئة العامة
لقصور الثقافة

326

أصوات أدبية



شباك مظلم في بناية جانبية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
أصوات أدبية
تعنى بنشر الإبداعات المصرية

رئيس مجلس الإدارة
أنس الفقى

أمين عام النشر
محمد السيد عيد

الإشراف العام
فكري النقاش

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
د. عبد المنعم تليمة

مديرة التحرير
سحر سامى

مدير التحرير التنفيذي
صبحي موسى

* شباك مظلم في بناية جانبية
* رواية : فؤاد مرسى
* (326)
* موتيفة الغلاف : عمر جهان
* التدقيق اللغوى : عادل سميح
* الطبعة الأولى : أغسطس ٢٠٠٢
* رقم الإيداع : ١٦١٥٦ / ٢٠٠٢

* المراسلات: باسم مدير التحرير على العنوان التالي :
١٦أ ش أمين سامى - قصر العينى القاهرة -
رقم بريدى : ١١٥٦١

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

شباك مظلم فى بناية جانبية

فـــؤاد مـرســـى



إهــداء

إلـى أمـى

والقابضين على جمرة المروءة

كعادته منذ سنوات عشر،
يطل برأسه من الشباك ملهوفا،
يتفحص المارين،
وينظر في الساعة.

أكــلّ هــذه الأجساد المشدودة الطازجة كانت تحملها عربات المترو؟

ســقطت مملكة الفوشيا التي دخلتها كل نساء مصر، الفتح الآن للــ ANTI FASHION..

إنهن يتدافعن نحوي في سرعة شيطانية..

خيول تشعل نيران الأرض وأنا المبترد.

هكــذا يحمل الصباح عادة على رصيف محطة مترو الأنفــاق مشروعاتي التي لا تتجاوز حافة البحلقة، فهل تفلــح ندوات المراكز الإستراتيجية في الحد من ظاهرة الزواج العرفي بين الشباب الجامعي؟

كان يأتيني والنهار استحال إلى غيمة من رماد تهيمن علـــى رءوس الصــــائمين، نهرع إلى شارعها وحلوقنا المشــققة من العطش تعب من حكايات عن بنت بضفيرة تــتدلى خلف ظهرها، حتى تمسك بلحمة قلبه وتشكل فيَّ الحلم بالأنثى.

نمشي حتى منتصف الشارع، حيث ترسو بناية جانبية يفصلها عن الشارع مبنى قصير، تسقط من فوقه نظراتها؛ فيضغط بكفه المعزوق على كفي حتى يكاد

يذوب.. إنه نفسه كان يتلاشى وهو يتلقى شذى سلام حبيّ، مثلما يتلقى الصائمون نفثات الصفا.

لابــد في النهاية من أن أستقل أول مترو قادم، أبحث بيــن راكــباته عن بنت لها مذاق فتاة صديقي.. أبدا لن أجلس مرة أخرى لصق امرأة بدينة، تزاحمني في المقعد وتضــغط بشــحمها علــى صــدري، فيتبدد مني عطر الممشوقات المستلبة لتوي.

جفــنان يعاركهمـــا نوم لزج، على حافتيهما بقايا من كحل، وعلى الشفتين بقع باهتة من صبغة شفاه نحاسية، فــبدتا مثل أرض يباب، رغم محاولات لسانها في ريّهما بلعـــاب يقتــنص مــن فم جاف، في مقدمته أسنان بنية الفواصل، ربما من أثر دخان السجائر التي شربتها طيلة الليلة السابقة.

إنها تشعر بالسكر.

ولا تعــرف بعد ماذا تقول إذا سألتها أمها أين كانت بالأمس.

فقــط.. قال لها الذي معها: قولي كنت مع ولد فتي، وكنت فتية.

وكانـــت عيناه المحمرتان مفتوحتين على اتساعهما؛ فبدا محيطهما مرعبًا، مملوءًا برغبة جارفة في مزيد من جـــريان الـــدم بهما، وكانا واقفين عن يميني.. هي تقسم مؤخـــرتها بالعرض حافة ظهر الكرسي، وهو بيسارها ملتصق.

(فيالخيبـــتك وأنـــت تقلـــب بين الفضائيات عن امرأة مكشوفة الجسد أو مشهد ملتهب، فالحلم صار أغنية تبدأ مـــن لثم انفراجة بين الرقبة والكتف، مرورًا باستدارات وانثناءات وانسيابات، حتى ربلة الساقين.. يا عبد المجيد.

الحلم صار بنتًا على قمة بلورتي صدرها ترسو وردة الوقت، وأنت الملدوغ بالعيب واللا يصح وعشرة أرفف مملوءة بتاريخ الإنسانية، "وسيدة الدار صامتة، فضحتها مشـــاكلة ادعتها بهتانًا، فأقامت ودها مع قائمة منقولات ســـودتها أصابع خبيرة بتاريخ النذالة، بعرض صفحتي فلوسكاب"، فقلتَ: للمرأة مملكتها.

"والمرأة شافتك مهيضًا.

الشارع قاتلك..

ضجيج همجي..

وANTI FASHION.

دم ينضـــح مـــن جلدك، وجذوة من بقايا تماسك قديم تـــترمد، ومدير الترويج بشركة كوكاكولا العالمية يقول: إن عدونـــا لـــيس البيبسي، عدونا الحقيقي هو مشروب الشاي في الهند وسيلان.

ولأنك لم تكن أبدًا خنجرًا مغروسا في قلب الحياة التي تكـــره أمـــثالك؛ فتحولـــت إلى دمعة من دمعات برتولد بريخت.

شافتنك المرأة فدلفت إلى نفسها، تاركة أمامك أطباق الجبن والزيتون والحلاوة الطحينية، ولم تكن بك رغبة سوى في كوب شاي ورغيف ساخن).

نـــزل الولـــد ذو العينين الملتهبتين، والذي لم تعرف صاحبته لليلة أمس أن اسمه أشرف إلا في محطة الملك الصـــالح، وبقيـــت هـــي تعـــالج الوقـــت بعينين نصف مفتوحتيـــن، وبيـــن الحيـــن والآخر تسوي فتحة البلوزة الشـــيفون البيضـــاء عند نهر صدرها، ربما كانت تعتقد أننـــي أعـــريها بعيني، لكنني كنت ألتهم بنتا ركبت من محطـــة الزهراء ووقفت بجوارها، تحتضن إلى صدرها أجندة محاضرات.

.. متوسطة الطول.

.. ترتدي طاقمًا من بلوزة وجيب سوداوين يؤطران بياض ساقين لامعين.

.. في عينيها حزن خفيف يخبط في صدري.

هـذه بنت لا تملك حيالها إلا أن تأخذها إلى صدرك وتمسد شعرها، وتجعلها تساقط دمعها على قميصك، فصديقي ترك فتاته لأسباب عميقة جدًا، ولكن شبّاكها في البناية الجانبية بضوئه الأحمر الخافت ظل يملؤنا ببهجة المستحيل، وضفيرتها بقيت تعارك الأحلام.

ـ اسمي دعاء.

ـ عمري عشرون عامًا.

ـ أكره كلية التجارة.

ـ لم أعد أحب الناس مطلقًا.

ـ خطيبي عمره ثمانية وعشرون ويقول إنك أكبر منّي.

ـ أنتم جيل محظوظ.

ـ كم عمرك؟.

* خمسة وثلاثون.

ـ تبدو صغيرًا.

* حقا؟!.

نزلت دعاء في دار السلام وعاودتني حكاية الأضواء الملونة، التي كانت تزين الكوشة.

والمعازيم يصفقون،

يزغردون،

وزجاجات البيبسي تدور،

والساعة تقفز إلى منتصف الليل،

والكوشــة ليس بها أحد غير المغني المتواضع، الذي يتــنقل بين الكرسيين المذهبين، يتمنى للعروسين أجمل الليالي.

نزلت دعاء في دار السلام.

وعبد المجيد رسلان مثلنا جميعا.. سافر.

.. ومثلنا أثث شقة.

.. صــار زوجــا وديعا، يشتري لامرأته الهدايا في المناســبات الســعيدة، ويذهب بأسرته إلى المصيف كل عام.

.. اجتماعي

.. له ولد وبنت

.. عادل بين أسرته وأسرة زوجته.

.. مشــكلته الوحيدة أن العالم لم يعد صادقاً بما يكفى وأن البــنات في الشارع أصبحن أكثر إثارة من زوجته، حــتى وهــى فــى قمصــان النوم، التي أمسى يسميها كلاسيكية

.. مشكلته الوحيدة أنه صار يهرع إلى عادته القديمة، يســتجلب فــي الظلام بأصابع مرتعشة نساء يتقن فنون الحياة.

يا الله.

أمِن بعد:

ورا كل شباك ألف عين مفتوحين

وأنا وأنت ماشيين يا غرامي الحزين

لو التصقنا نموت بضربة حجر

ولو افترقنا نموت متحسرين*

أبعــد كل هذا الوقت تبكيك قصيدة الأبنودي "**يامنه**"، وتقص منها:

---

* إحدى رباعيات الشاعر: صلاح جاهين

إذا جاك الموت يا وليدي

موت على طول

بل وتحرّق أطرافها وتثبتها في برواز بإطار أسود.

نزلت دعاء في دار السلام

وتزوجت فتاة صديقي.

صار رمضان يأتي بلا تجوال قبل الإفطار.

وأمسى شباك غرفتها مظلمًا.

أمسى شعرها بلا ضفيرة.

أمست كلما رأتني خبأت وجهها.

وكلما رأيتها قلت: ياه.

1986

هاج بطني.

انتابني شعور طاغ بالقيء بمجرد أن دخلت من باب الشقة.

رائحة مكتومة، خليط من أنفاس نوم، ورطوبة حوائط، ورائحة عرق جاف.

كان البيت غارقًا في الظلام، رغم الظهيرة. أضأت نور الصالة، هرعت إلى شباك غرفة الجلوس، دفعته بغضب، وحططت على الكنبة البلدي وأنا ألهث.

رفعت غطاء الحلة الموضوعة فوق البوتاجاز، كان بها ما يكفى لملء طبق كشرى، الصلصة والتقلية في فرن البوتاجاز، أشعلت النار واتجهت إلى الحمام، كان بابه ثقيلاً وأنا أدفعه، كأن أحداً يمنعه في الداخل، أخذت أزحزحه ببطء والخوف من مواجهه المجهول يفرم لحمى.

الفرجة التي باح بها الباب إثر زحزحتي أظهرت قدمي أمي مفرودتين على الأرض، أسفل الحوض، وظهرها مرتكن إلى الحائط، بينما رأسها مائل على كتفها

الأيمن، أحسست أنه الموت. رأيت الفقد والضياع ماثلين أمامي.

انحنيت عليها مسرعًا، مزرت أصابعي أمام أنفها، متحسسا زفيرها. هم ثقيل فرض نفسه ورحل في لحظة.

جرجرتها إلى خارج الحمام، أذنت في أذنها اليمنى، ارتعش وجهها عند إقامة الصلاة، وأنَّتْ خفيفًا.

بعـــد درجات أربع من مدخل البيت، فـــي الـــردهة، تجلس جدتى، تستقبل بيميـــنها الداخـــل من البوابة، وجهها يـــتعامد علـــى باب الشقة وبجوارها مقشـــة بلح لدفع ابن عرس، وأمامها كومة من أعواد الملوخية.

نظرت في عيني مباشرة، وقالت:

ــ رحت عندكم؟

جلســـت إلـــى جوارهـــا، على حافة الـــبلاط، مدلـــيًا قدميّ على الدرجات الحجرية المتآكلة، التي تساوى أولها بسطح الشارع، بعد سفلتته.

ــ آجيب لك تاكل.

وتـــنهدت وهـــى تســـتند على كتفي لتنهض:

ــ ما هي بس لو أمك تبطل حزن!

وغابت في الداخل.

حامد أحمد

قابلته في الصباح.. كان يجلس عن يميني مباشرة، على سطح المائدة التي يجلس إليها كتاب صغير، ضخم،

باللغة الإنجليزية، وبجواره كوب ماء نصف ممتلئ.

بامــتعاض، وضعت كوب القهوة واستدررت لعابي؛ لأزيل ميوعة خلّفها البنّ غير الناضج من جوانب فمي.

غيرت جلستي قليلاً، أصبحت في مواجهة القادمين من أول الشارع، ونظرت في الساعة.

الوقــت بكر، وأجساد الطلبة تختلط بأجساد الموظفين والعمــال الذاهبيــن إلى أشغالهم، وعيناي لم تلمحا بعد واحداً من الأصدقاء.

تعبتُ من التحديق. نظرتُ إلى كتابه، محاولاً استكشاف عنوانه، بصعوبة قرأت: تشارلز ديكنز.

قال:

ـ رواية الأوقات العصيبة.

وقــال إنه يميل إلى الأدب الفرنسي أكثر، لكنه يقرؤه في ترجمته الإنجليزية، وإن كان هذا يفقده حساسية اللفظ الفرنسي، وقال إن اسمه حامد أحمد.

كان واضحًا أنه ضليع في الإنجليزية، التي لم أستطع إجادتهــا أبــدًا، رغم محاولاتي المتكررة، مضت نصف ســاعة وهــو يتكلم بسرعة مدهشة وأحاسيس مستنفرة، حــتى دقــت التاســعة. قمت لأدفع ثمن ما شربتُ، هبّ

واقفًا وسبقني إلى العامل، رأيته يشير نحوي وهو يتحدث معه، فأسرعتُ إليهما.. قابلني في منتصف المسافة، كان قــد دفــع الثمن لي وله، أبديتُ حرجا، اندهش وتحدث وكــأن بيننا آصرة راسخة، ورافقني في اجتياز المسافة من المقهى إلى الكلية.

كانــت الكراسي في كافيتريا الكلية مرصوصة بعناية حــول الترابــيزات، البوفيه على يسار الداخل مزدحما بعلب البسكويت والشيكولاتة والسندوتشات، وأبخرة الماء المغلي تتصاعد في الفضاء، ولا أحد.

اتجهــت إلى مكاني، على السور القصير المتعامد مع مبــنى المدرجــات، عيــناي على بوابة الكلية، أتفحص الوجوه الجديدة، وظهري للشمس.

رآنـــي صادق، فسألني عنها، بعدها رأيته يقف معها. كـــان جسدها قد امتلأ قليلاً، فبان قِصَرها، أخرجت دفتر اشــتراكات الأســرة – شباب المستقبل– وأخذت أحرر لحامد قسيمة بعد ما أبدى رغبته فى الانضمام إلينا، توقفا أمامــنا وأنـــا أكتــب السطر الأخير.. وضعتُ العشرة جنيهات التي أعطانيها حامد في منتصف الدفتر واستقمت مرحبًا بحنان، داعبتني بنكاتها كالعادة، بينما فرت أصابع

صادق في الدفتر، وضع العشرة جنيهات في جيبه خلسة، لمحه حامد، فطالبه بالباقي، بعد ابتسامه ساخرة، انفجرت حنان ضاحكة ورحبت بحامد عضوًا في الأسرة.

(كائن آخر غير مريح)

قالها حامد بصوت هامس، كأنما يحدث نفسه، وتنهد. نظـرت فـي وجهـه وتجهمت، ثم واصلتُ تحديقي في الوجوه.

كـان الأصـدقاء يمرون عليّ، نتعانق، نتبادل حوارًا سـريعًا، ثم يمضون إلى الكافيتريا، إلا عبد المجيد الذي بقـى معـي حتى جاءت سعاد بضفيرة مدلاة على كتفها الأيمـن، وعلـى الأيسر حقيبة يد من الحبال المجدولة، ترتدى جيباً طويلا تتلامس حافته مع كورنيش الجورب القصـير، الـذي ارتدتـه على حذاء من القماش البمبي الكاروهات..

الطـاقم كله جعلها أشبه بتلميذة صغيرة وليست طالبة في البكالوريوس. كان عبد المجيد فرحًا بقدومها، إلى حد أنـه كاد يقبّلها، أثنى كثيرًا على هيئتها، وانتشت، حتى رأيـت كفـيها ترتعشان، شبكت أصابع يديها، وراحت تفركهم، وكتفاها تتضامان.

اقترب من أذنها، وهمس: بحبك، فردت عليه بحركة من شفتيها.

انصرفا، فأحسست بالزهق وتركت المكان كله.

*

في مواجهة الداخل تجويف مستطيل في الحائط، بداخله صورة للكعبة تحيطها مياه المطر، والطائفون حولها تبلغ المياه أكتافهم، وأياديهم مرفوعة إلى أعلى: خشوع بليغ يشع من وجوههم المتضرعة.. رقائق ألواح خشبية رقيقة تحيط جوانب التجويف، على حوافها يستقر لوح زجاجي مصقول يحفظ الصورة من الخلف، وحوله إطار من أعواد الخشب الرفيعة، بارزة قليلاً عن سطح الحائط ومحلاة بنقوش ذهبية على شكل سنابل متصلة.

الصورة كانت لدى رجل سعودي من أهالي الرياض، أثناء عمل جدي بها.. كانت تتوسط حائط مثبتة عليه أشياء مختلفة: ضب محنط، جلد غزال كامل، سيوف وخناجر.

وأسفل الحائط طاولة كبيرة فوقها:

راديــو علــى شكل دولاب صغير،
مكواة تعمل بالفحم على شكل قارب،
أوانٍ نحاسية.

كانت غرفة الرجل تشبه المتحف، بها
مــا يثــير الانتباه دائمًا، لكن صورة
الكعــبة والناس يطوفون هكذا وسط
المــياه لــم تكن تفارق عيني جدى،
وحين قرر العودة طلبها من الرجل،
الذي نظر إليها بإعزاز، ثم قال:

ـــ سيبنى أدبر حالي.

وبعد أسبوع عاد إليه، كانت الصورة
لا تزال في مكانها، فنظر جدى إليه.
بَشّ الرجل في وجهه وقام إلى دولاب
صــغير في زاوية من الغرفة، أخرج
منه لفافة ورقية مربوطة بشريط من
المنتصــف، وناولهــا لجدى، فتحها،
فالتمعت أمامه الصورة نفسها وبذات
الحجم تقريبًا.

دخلت من الباب، فرأيتها.

كم من الوقت مضى وأنا واقف هكذا أحملق فيها، وخيوط العرق تسيل من مفرق شعرى، تجرى على جانبي وجهي وتتقاطر، فتلامس قدمي.

جريتُ نحو غرفة جدتي، كانت تصلى، انتظرت حتى سلّمت وأخبرتها، ولم أنتظر لتبدل ملابسها لتأتى معي. سبقتها إلى هناك.

لم تكن عينا خالتي منتفختين، ولا ظلل البكاء حوافهما بهالات بنية، ولا عفرت ملابسها من تمرغ في التراب، وقفت أمامها ولم ترني، حدثتها ولم تسمعني، شددت على كفها وكانت قطعة رخوة، انكمشت داخل قبضتي، ولما تركتها انزلقت سريعا وتأرجحت في الفراغ قبل أن تلتصق مرة أخرى بحافة الكرسي.

وكنـــت أحيانًا أقف أمامه ولا يراني، أنقر على كتفه بإصبعي ولا يتنحنح فأصرخ.

ــ عماد، هل تسمعني.. عماد..

(من فوق سريرك أو من انحشارك داخل الكرسي أو من أي مكان فوق الأرض، ترى كأنك تنطلق في حركة

عموديـــة إلى أعلى، حتى تفارق قمم الأبنية، فتميل إلى الأمام، شاقًا الفضاء باتجاه غير محدد بلا أجنحة أو أذرع ترفــرف، تغــوص ملامسًــا ــ بأصـــابع كأنها ليست كأصـــابعك ــ ذؤابــات الأشجار وسنام المآذن والقباب، متحسسًا وجه القمر الحبيب، مارًّا بعرض النهر، مستقرا فـــي النهاية على شاطئه الغربي بجوارك الكيس القماش الكــاكي، يصــطخب بداخلــه السمك الحي الذي اشتبك بســنارتك، والذي تطلق سراحه إلى النهر حين تقرر أن تعود.

مبتسماً تنظر حواليك فتراني، ترحب بي وتسألني عن أحوالي، ثم تؤكد من جديد أنك لا تعرف بصدق إن كان ما تراه حلمًا أم حقيقة!

تقــول: إنك لا تشعر بشيء حينئذ غير أمنية تترقرق فـــي الداخــل بأن تثبت الحياة عند تلك الصورة، وماء الأماني ينحدر من منطقة تفتح في القلب فجأة، ليغسل كل مـــا حولــك ويجعــل كــل شيء بلون الصباح الأبيض الطاهر).

تجيء خالتي بصينية الشاي، تجلس أمامه، كفها يتكئ يميـــنًا علـــى الملــف المليء بتقارير الأطباء، وعيناها

المفعمتان بالأسئلة تلفّان وجهه وهو يتحدث.. لا يتوقف إلا عـــندما تظهر طفلته الأخيرة واقفة عند الباب، تشير إلـــيه، يدعوهـــا للدخـــول، تهـــرع مباشرة إلى ساقيه، تقـــتعدهما، تعلق ذراعيها برقبته، موسدة رأسها صدره، لاثمة موضع استرخائها، فيروح يقبل ما يبلغ شفتيه من جسدها الصغير، يقهقه وهو يدغدغها تحت إبطيها وعند جنبـــيها وفى باطن قدميها وهى تتقلب فرحة، لا تحاول الفرار من خشونة أصابعه.

وحيـــن بـــدت ذات مرة ملتاعة من حكايا أخيها عن العفاريت التي تتقمص صور الموتى وتطلع على الأحياء لـــيلاً لتخيفهم، كان ثائرا وهى تنتفض بين ذراعيه، ولما قـــرت فرائصها إثر تمرير كفه على جسمها وربته على رقبتها.. استدعى الولد، أوسع له إحدى ساقيه وأجلسهما متواجهين، محوطًا ظهريهما بذراعيه، متحدثًا عن وداعة المـوتـــى وجمـــال الملائكة والحور العين، وإذ يخرجان مبتسمين.. انطلق يردد ضاحكًا وهو يحدق في خالتي:

ولدى نصحتك لما صوتي اتنبح

ما تخافشى من جنى ولا من شبح

وإن هب فيك عفريت قتيل اسأله..

فأكملت زوجه بعيون دامعة:

ما دافعشي ليه عن نفسه يوم ما اندبح*

وفي صوت واحد قالا:

عجبي..

ثم التفت إليَّ، وقال:

ــ قل عجبي.

فقلت..

كان جميلا أن أقابله مرتين فى ليلة واحدة.

في بيت جدتي لأمي كانت العائلة مجتمعة في غرفتها حــول جسدها الفارع الذي سكن فجأة، كانت نائمة على ظهــرها ورأسها إلى السقف وعيناها مفتوحتان، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تحدث لجدتي إغماءة طويلة، هــو الذي نبهني لذلك وقال إنها حدثت مرات ثلاث من قــبل وأنهــا بعــد لحيظات سوف تصحو وتشاكسنا، ثم تمنحنا دعواتها الطيبة كالعادة، غير أن الطبيب حين جاء قال:

ــ البقاء لله.

(صاتت نساء العائلة ووهنت قوى الأحياء منا وغيرك

* إحدى رباعيات الشاعر: صلاح جاهين

لــم يــتقدم نحوها، أسبلت عينيها وأدرت جسدها الثقيل وحــدك، موجهــاً رأسها إلى القبلة، بينما خالتي كانت تــتابعك وتجــاهد في إخفاء دموعها عنك، التي انفتحت كالجــرح، أنــت لم تر هذه الدموع أو ربما رأيتها حين صمتك المفاجئ ولجوئك إلى الإشارات بديلاً عن الكلام، وقتــئذ كــثف انهمارها مصحوبًا بنهنهات عالية، جعلت الحاضرين ينشغلون بها عن الميتة، ولما سكتت هرولت إلــيك وتشــبثت بك فابتسمت، وعبر الهاتف في المساء التالــي، بعد عودتك من لقاء الطبيب كان صوتها فرحا، وكنــت فرحًا بخلاصك من احتمال الجراحة واستمرارك فــي تناول العقاقير لمدة عام قادم فقط، قالت: إنك دخلت ومعــك علبه جاتوه ولعبة للبنت والولد، وحين طلبتُ أن أهنــئك كنــت قد نمت فعزمت أن أهاتفك صباحًا.. في اللحظات الأولى من النهار التي تحبها).

واريناه التراب وعدت إلى زوجه، وقفت أمامها ولم ترنــي، كلمــتها ولم تسمعني، شددت على يدها وكانت قطعة رخوة سائبة، فقبضت على كتفها صارخًا: خالتي.. خالتي

* *

محيط مربع، واسع، حوائطه الأربعة تمنع تسرب الأصوات، حائط يشترك مع الجيران وحائطان مع شقة الجدة، في أحدهما باب طويل بضلفتين يؤدى إلى الصالة، يواجه طرقة دورة المياه مباشرة، إحدى الضلفتين لا تفتح أبدًا، مقفولة بترباسين سميكين من أسفل وأعلى، بالحائط الرابع باب يفتح على مدخل البيت وشباك يطل عليه، في نهايته فتحة مستطيلة بعرض الشباك، مغطاة بسلك ذي فتحات ضيقة تسرّب الهواء بالكاد.

بارتفاع متر من الأرض يبدأ الشباك بقاعدة خشبية ضخمة، بارزة إلى الأمام ومستديرة عند الجانبين، يطلق عليها جدي كرسي الشباك، هو الشباك الوحيد بالبيت الذي به هذا الكرسي والذي يحتفظ خشبه – المستخلص من شجرة جميز كاملة –

بلونه الأصلي، متجليًا من تحت طبقة
ورنيش موبيليا، زاهيًا بلمعة خفيفة
ونعومة مصقولة، والمرات التي أتى
فيها النقاش لدهان البيت حرص جدي
على ألا تطوله قطرة بوية، فكان
يغطيه بأوراق الصحف والملاءات
القديمة، ورغم أن الرطوبة أكلت
حوائط البيت من الخارج، حتى بان
الطوب، إلا أن هذه القاعدة تبدو دائما
جديدة، كحالها أول مرة.

في البداية كنت أضع الكرسي أمامها
وعلى سطحها كتبي، وأذاكر، أو
أجلس على سطحها ممددًا ساقيّ على
الكرسي، وعلى ركبتيّ كتابي، مستندًا
بظهري إلى الشباك. كان ذلك قبل أن
أشترى مكتب إيديال ـ مستعمل ـ
بأدراج تسع حاجاتي.

الآن.. جلستي المفضلة عليه. أفرش
فوقه مخدة السرير، ثانياً ثلثها على

الحائط الجانبي للشباك وأمدد جسدي إلا قليلا.

محمد قابيل

كان يقرأ، فينتشي.

يقرأ، فيجوب الشوارع.

يعيد قراءة: حبيبتك إلى الأبد. سهام.

يتوقف عند حرف الهاء من اسمها وقد استبدلته بقلب صغير، ويفكر.

ويحكي:

– نقطع الشوارع الجانبية، المظلمة، التي لا نتوقع أن نقابل فيها من نعرفه، وإذا حدث نفترق بسرعة، على يقين من موعد الغد، الذي لم يخلف أبدًا.

يرتعش بدني والإشارات المتفق عليها تنفذ بدقة. نور غرفة الصالون يتسرب من خصاص النافذة في البداية ثم تنتقل حركة الإضاءة بين النوافذ المطلة على الشارع بالتناوب، حتى ينطفئ النور كله، استعداداً لظهورها.

أسرعت نحوها، انعطفت يسارًا، مشيت، حاذيتها عند منتصف الشارع، تكلمنا ووجهانا إلى الأمام.

نزفـتُ أشـواقًا، وأشـواقًا، قابلتْهَا بصمت، صادفتنا ماسـورة مـياه منفجرة، فاتجهنا إلى الرصيف، سبقتها، واستدرت لآخذ بيدها، منعتها عنى، فأبقيت كفى ممدودًا لهـا، حطت أطراف أصابعها في راحتي بحذر، فقبضت عليها، كانت راحتي ندية، وأصابعها دافئة وجافة.

صعدت إلى الرصيف، فانتشلت أصابعها منى، ومشت ورائـي هـذه المرة، حتى بلغنا شارع الجيش، هناك.. مشينا متلاصقين.

بلغـنا محطة القطار من الخلف، توقفت عند المدخل، التقـت عيناها بعيني، مدت يدها إليه وصافحتني، قائلة: إن الحـياة حـتماً ستدفع لي بواحدة غيرها، ربما أحبها وأتـزوجها.. يومـاً مـا سـتراها بصحبتي، أو تقابلني مصـادفة وتسـألني: هل زوجتي جميلة أم أنها مازالت الأجمل في عيني!

بـدا محمـد قابيل وهو ممدد على السرير مثل ميت، تلـف جسده بإحكام بطانية لا تظهر منه شيئًا إلا نتوءات جسده، ولولا حركة بطنه أثر التنفس لكنت قد اعتقدت أنه ميت فعلاً.

جلست على الكرسي الوحيد في الغرفة، وصعدت خالته لتجلس إلى جواره مع أمه وجارتها، اللتين كانتا قاعدتين عند رأسه، تقرآن عليه المعوذتين بصوت مرتفع وتمسحان بكفيهما على رأسه المحشور بين طرف الوسادة والحائط، ولما فرغتا، اشتبكن الثلاثة في تناوب الحسرة على شبابه.

كان الشباك مفتوحًا، تنفذ منه أصوات صاخبة لأطفال يلعبون في الشارع ومطارق تعمل بعنف، والذباب يملأ الغرفة.. يتكاثر عند جسده المسجى، أما عمته فكانت بالصالة.

بعصبية: طوح الغطاء عن جسده. قلَّب بصره بين الجالسات، وهبَّ مفزوعًا. نزل إلى الأرض، ثم مرق إلى الحمام، ودهشتهن تتعقبه، أحست الجارة حرجا فاستأذنت، انطوى داخلي على ضحكة وخالته تلوى شفتيها، بينما كنت جالسًا على طرف الكرسي، أهز ساقيَّ المتعامدتين بأطراف الأصابع على الأرض.

أثناء غيابه في الحمام حكت لي أمه ما حدث:

استيقظ، فوجد نصف وجهه الأيمن عاجزًا عن الحركة، وحين تكلم اكتشفوا أنه لا يستطيع الكلام

بوضوح، كان فمه معوجًا، حتى إن الماء والطعام تساقطا من جانب فمه الأيمن وهو يتناول فطوره، وعينه محمرة ودامعة، مفتوحة طول الوقت، لا يغلق لها جفن.

قال الطبيب: إنها لفحة برد تصيب العصب السابع بالشلل المؤقت، الذي يستغرق علاجه من أسبوع إلى ثلاثة، حسب الحالة النفسية، وقال: مرجوع إن شاء الله.

عند تلفظها بكلمة "النفسية".. ارتبكت وتحسست خدي الأيمن، مباشرة.

ارتدى ملابسه بسرعة وخرجنا. أوصتني أمه همسًا ألا يتعرض لتيارات هواء باردة، في مروري بالصالة توقفت قليلاً أمام عمته التي طلبت مني أن أعرف ما به.

لم يتكلم.. فقط.. قال نكتة، وضحكنا، وحين همَّ بإلقاء الثانية تحسس جانب فمه وراح يدلكه بحركة دائرية، ثم أغلق جفنه الأيمن بأصابعه وفرك عينه، ولم يصدر عنه صوت بعد ذلك.

جُبنا الشوارع وكان قد طلب مني ألا نقف مع أحد.. سهرنا بغرفتي، شرب معي القهوة وقرأ مجموعة يوسف إدريس "بيت من لحم" وقرأت "أرخص ليال"، ثم أوصلته في نهاية المساء للبيت وعدت.

فـــي الـــيوم التالي. ذهبت إليه ولم أجده، فجلست مع عمــته "سيدة قابيل". حدثتها عن صادق ورفضه لرسوم محمــد الســريالية، ذلك الرفض الذي كان يقابله محمد بســخرية شديدة، ثم يبدأ في رسم لوحة جديدة. نعم.. لا يصـــل منها معنى مباشرا، لكني قلت: علينا أن نفهم، أو على الأقل نحاول.

(لن أرسم مرة أخرى)

هكـــذا قرر محمد، بعد أن كثف صادق هجومه عليه في المرة الأخيرة، وقال له: أنت فنان فاشل، ولوحاتك لا تعبر عن شيء، إلا الخواء اللي جواك.

ولم أحدثها عن سهام، التي كانت تستبدل حرف الهاء مـــن اسمها بقلب صغير، كنت أرتاح للحديث مع "سيدة قابيل"، فتاة جاوزت الأربعين، بشلل أصابها في طفولتها وأنفقـــت على علاجه كل ميراثها من أرض أمها بقرية "مجول"، ولم تتحسن.

أتذكـــر الآن أنني لم أعرف بشللها إلا في نهاية العام الثانـــي من علاقتي بمحمد. كنت دائمًا أراها جالسة على كنـــبة بلـــدي في الصالة وأمامها ترابيزة بمفرش طويل يـــدارى ساقيها، وعلى الترابيزة دائما باترونات لمفارش

بليسيه، كانت ماهرة. صنعت لمحمد وأخيه الأكبر طاقمي سرير كامليـن بالبليسيه على شكل وردة كبيرة تحيط بأطرافها مجموعة من الورود الصغيرة المتعانقة.

كيف لم ألحظ ذلك من قبل.

لقد مضى وقت طويل وأنا أدخل هذا البيت، أجلس معها ونتبادل حوارات طويلة، أحكي لها عن سهام ونجوى وأمي.

تضيق بي الدنيا، فأفتعل أي شيء لأذهب إلى محمد وأتمنى ألا أجده، لأجلس معها، تحكى لي عن طفولتها بمجول، ثم انتقالها إلى بنها بعد وفاة أمها، واجتهادها في الدراسة ورغبتها في الحصول على الماجستير في علم النفس، وعن علاقاتها ببعض الناس الذين تجرى لهم تحليلات ومعالجات نفسية مجانا وسرًّا.

ولم ألحظ أنها مشلولة أبدًا.

المرة التي عرفت فيها كنت ساهراً مع محمد، وحين خرجنا من غرفته إلى الصالة، رأيتها أمامي، تتوكأ على البوفيه القريب من طرقة دورة المياه، يداها مستندتان على سطحه، وقدمها اليمنى مستريحة على الأرض، واليسرى متعامدة عليها، بالكاد تلامسها بأطراف

أصـــابعها. رأتنـــي، فابتسمت وأسرعت ترتكز بكوعيها علـــى زجاج البوفيه، وهى تقاوم ثقل جسدها على قدمها السليمة.

سألتني سيدة قابيل عما حدث في رحلة بور سعيد. فوجئت بمعرفتها للحكاية، وقالت إنها تريد أن تعرف منى.

لـــم أذهـــب معهم، لكنى عرفت أن صادق في رحلة العـــودة قـــام بفصـــل الكهرباء عن العربة المخصصة للرحلة. صرخت البنات في البداية، ثم هدأن، وقررن في أماكنهن خائفات. كان مقدرا للأمر أن يمضى هكذا حتى النهاية، فينهل العاشقون حتى يرتوون، لكن مفتش القطار فضـــح الأمر بإصراره على عد المشتركين والتحقق من شخصـــياتهم، وحين اقترب من المنتصف سلط الكشاف فجـــأة علـــى الثلث الأول من العربة، وهناك بانت خيمة ســـوداء تهـــتز، كان صادق وحنان تحتها، أدار المفتش الكشاف عنهما، وبعد برهة رماه مرة ثانية فوجد الخيمة قد اختفت وصادق يرافقه في التحقق من الكارنيهات.

توقـــف المفتش وأرسل طالبًا لاستدعاء زميل له، من

العربة المجاورة، وراحا يصلحان الكهرباء وسط تصفيق الطلبة واشتراكهم في أداء أغنية لم تخلُ من التلميحات..

ـ قصدك ياللي ع الترعة حود ع المالح؟.

ـ عرفتى منين!

قالت: إن أم زميلة لنا، حكت لها ما جرى، وأن بعض البنات كن ينوين تقديم شكوى لإدارة الكلية ضدنا، لولا أن تلك الزميلة رأت أن الأمر سيطولنى من قريب أو بعيد، فأقنعتهن بالعدول عنها، واكتفين بمقاطعة نشاط الأسرة.

ـ مين البنت دى؟

ـ مش مهم.

ظـــل أمر تلك الفتاة يشغلني، رحت أبحث في وجوه مـــن أعرفهـــن عنها، حتى تعبت، فقررت نسيان الأمر برمته، لكن التي لم أنسها أبداً كانت سيدة قابيل، وجلستها الأثيرة.

*

وللغرفة بابان،
باب من مدخل البيت مباشرة، والثانى من داخل الشقة.
وضعها هكذا جعلها تنتمي إلى البيت ولا تنتمي إليه في آنٍ.
كانـــت قديماً، مشغولة بطاقم صالون مذهب، تزوج فيها عمى الأوسط، قبل عـــثوره علـــى شـــقة، وبعد خروجه شـــغلها عمى الأصغر، الذي حصل فـــيها علـــى الثانوية العامة وليسانس الحقـــوق، بيـــنهما سكنتها أسرة من مهاجـــري الســـويس أيـــام حـــرب الاســـتنزاف، كـــان راعـــيها يعمل أســـترجيا، أقامت جدتي علاقة طيبة معهـــم، حـــتى إن الأســـرتين كانتا تشـــتركان فـــي طبيخ واحد، وكانت جدتـــي تتمنى أن تصاهرهم لولا أن عمـــى الأصغر لم يوافق على ابنتهم الوحيدة، التي اكتفت بدبلوم التجارة،

ثم عادت الأسرة بكاملها إلى السويس بعد أكتوبر 73 ولم نعد نعرف عنهم شيئًا.

كنت قد نسيته.. حامد أحمد!.

وجدته أمامي، وأنا جالس في مكاني، على السور المقابل لمدخل الكلية، أحدق في البنات بسعادة، وأبحث عن حبيبة.

ورافقني منذ رآني.

قال إن حنان منذ الأمس تدور بين الطلاب تجمع إعانة لواحد من أعضاء الأسرة يمر بأزمة، وأنها جمعت حتى الآن خمسين جنيهًا.

وقبل أن أفكر في الأمر، داهمني قائلاً:

ـ طبعا دى حدوتة من تأليف صادق.

وأطرق لحظة ثم واصل:

ـ ليه ما يكنش باتفاق معاها.. جايز!

باغتني بما يرى، وغضبت لمداهمته لنا بهذه السرعة، ثم قال إنه يبحث عن شقة، ليقيم فيها، وأن لديه موعدا في المساء مع سمسار في بنها الجديدة، وأنه يفضل لو كنت معه، ودعاني إلى الإفطار في الكافيتريا.

دخلت فوجدت ساهر حشيش.. أمامه على الترابيزة علبة مارلبورو وأطباق مليئة بساندويتشات الجبن الرومي واللانشون والقشدة بالمربى.

كان ممسكًا بديوان أمل دنقل "قصائد الغرفة رقم 8"، يقرأ منه على فتاة امتلأت عيناها بالوله المفرط، وساقاه تهتزان بانتظام، فيحتك طرف حذائه بطرف حذائها . وقفت وراءه، أستمع. حدجتني البنت باندهاش، بينما الوله يذهب عن عينيها تدريجيًّا، أدار رأسه فرآني.

ابتسمت وأنا أنظر نحوها، واصل قراءته، فانصرفنا إلى مائدة في ركن بعيد.

قلت:

ــ تحب تسكن مع حد؟.

ــ مين؟.

ــ ساهر.

نظر إليه وقال:

ــ أنا مش أي حد يقبلني بسهولة.

تراجعت عن الفكرة على الفور؛ تجنبًا لما يمكن أن يحدث لو كنت طرفًا في معادلة لا أدرى أبعادها تمامًا.

ــ شكلك رجعت عن الفكرة.

ـ سيبنى أسأله.

أخـذ يضحك بجنون، حتى كدت أنفجر فيه، وقررت أن أتخلص منه في أول مناسبة، فلن أطيق عليه صبرًا، ثم إنه لا حاجة بي لأصدقاء جدد، لدي منهم ما يكفى.

وحيـن تجاوزت الثالثة عصرا، قررت أن أعود إلى البيت.

قال:

ـ مش جاى معاى للسمسار؟

ـ نسيت.

ـ لو ما لكش مزاج.. خليك.

ـ لا.. أبدًا.

ورافقني إلى بيت أمي.

أدخلـته إلـى غـرفة الجلوس، فتحت له التليفزيون، ودخلـت إلـى غرفة أمي. استيقظت بمجرد أن أضأت النور. سحبّت من تحت مخدتها مظروفًا، تلقفتُه ملهوفًا، وفتحـته، كـان بداخلـه خطاب من أختي، وبين طيات الخطـاب شـيك بمائة دولار، باسمي. فرحت بالخطاب وبمـا بداخلـه، وعزمـت على صرف الشيك غدًا، قبل الكلية.

دخلــت علــيه، كان مشدودًا للتليفزيون. رحبت به، وكأنه لم يسمعني. للمرة الأولى أحدق في وجهه. عينان صغيرتان، غائرتان، في وجه صغير مستدير، لا يتناسب مع بدانته، وجه يوحي بالطيبة المفرطة في صمته، وحين يتحدث تشعر أنه مستثار وغاضب.

التفت إليّ، فواريت عيني، بعد ما تملكني التفاؤل بما أصـــابني من يسر في وجوده، وقررت أن أمضى معه اليوم حتى نهايته.

كـــان البيت خاليًا مما يليق بضيافته كما خشيت، وما معي من نقود يكفى بالكاد طبق بلوبيف بالبيض أو ربع كـــيلو فســـيخ، تلعثمت وأنا أستأذن منه، فعافاني وخرج معـــي، في الشارع خيرته، فآثر البولوبيف، وعند البقال دفـــع ثمن ما اشترينا خلسة، وأنا أطمئن على البيض في الكيس.

حيـــن عدنا سألني إن كان أحد بالبيت غيرنا، فقلت: أمي، التي شاركتنا الغداء واحتفت به.

*

مـــن بيـــت أمى إلى غرفتى فى بيت جدتى مسافة قصيرة، امتلأت بدهشة "حامد" من وضعى هذا: آكل فى بيت وأعيش فى آخر.

لـــم تسمح له تلك المسافة أن يواصل فضـــوله، إذ وجد نفسه بسرعة أمام بيت جدتى، ولم تكن بى رغبة فى أن يعرف عنى غير القشور. ولأن جدى لا يحب الغرباء، فقد أدخلته من الباب المشرف على ردهة البيت، ورجوته أن يتكلم بصوت خفيض حتى لا يعلم بوجـــوده أحد، ولم يفعل طيلة وجوده بالغرفة غير تقليب عينيه بين صورة الكعـــبة فى تجويفها المؤطر وبينى، وتوقف تمامًا عن أسئلته، حتى صار وجـــوده أثقل مما يحتمل، فتناومت، حتى نمت بالفعل، وحين استيقظت لم أجده.

بدأ صادق يخفي عني الأخبار، ولم يعد حتى يستقبلني في شقة ساهر، التي كان يقيم بها طول الوقت، واكتفى بلقائي في الكلية.

كان يعد نفسه لرئاسة اتحاد الطلبة بالكلية، عرض عليّ أن أرشح نفسي لأمانة اللجنة الثقافية، فرفضت في البداية لأن محمد قابيل كان ينوى الترشيح لنفس اللجنة، أخبرني بهذا قبل بداية الدراسة، وحين فاتحته في الأمر قال إنه تراجع عن الفكرة مطلقًا، ولم يعد يشغله شيء غير الحصول على تقدير في البكالوريوس، فتقدمت للترشيح، منافسًا لأحمد الجبالي وسيد عبد المجيد، ودعاني صادق لحضور جلسات الترتيب بشقة ساهر.

لم تكن تعجبني طريقته في إدارة الأمر، اختلفت معه كثيرا، وفكرت في التنازل، لكن التزامي معه جعلني أمضى حتى النهاية، دون أمل في نجـــاح، ودون حمـــاس كذلك، وحين استحكمت خلافاتنا عقد تحالفًا سريًّا مع سيد عبد المجيد وأحمد الجبالى في آن واحد، وفى يوم الانتخابات لم أذهب إلى الكلية، إلا آخر النهار، أثناء فرز الأصوات، قضيت اليوم كله برفقة حامد، الذي استيقظ ليفتح لي ثم عاد إلى نومه.

كان يحشر رأسه بين وسادتين، والغرفة التي ينام بها تعمُّ الفوضى أرجاءها. أطباق بها بقايا من طعام على مكتب مفروش بالغبار، وفي وسط الأطباق أباجورة. كتب ملقاة على الأرض، وحذاء تحت السرير مباشرة، وشماعة سقطت ـ بما عليها من ملابس ـ على صندوق تليفزيون مغلق.

كان المطر يتساقط في الخارج خفيفا، وثمة غمام رقيق يسيطر على العالم.

أزاح الوسادة من فوق رأسه، وقال:

ـ تشرب شاي.

وذهب إلى المطبخ، أشعل البوتاجاز تحت البراد، ودخل الحمام ومعه كتاب، غاب طويلاً، حتى سمعت طقطقة البراد، فأسرعت إلى المطبخ، كان الماء قد تبخر بالكامل، أطفأت البوتاجاز، وأمسكت البراد الذي احترقت يده وألقيت به في الحوض. كانت رائحة البلاستيك المحترق والنفايات الطافحة من سلة المهملات تخترقني، أحسست بالدوار وبرغبة في القيء، أوقفتها بإحاطة فمي بكفي وعدت إلى الغرفة.

وقفت أمام الشباك، أتنفس رائحة البلل في الخارج،

حتى جاء بالشاي. أغلق الشباك وجلس على السرير مؤتزرًا بالبطانية، تخللنى الإحساس بالبرد، فخلعت حذائي وصعدت إلى السرير، واضعا ساقيّ تحت البطانية.

قلت:

ــ إنت مش رايح الكلية؟.

هز رأسه نافياً، وقال:

ــ ابتسام مش رايحة!

ثم نظر إليّ وقال:

ــ أنا وابتسام بنحب بعض.

وأردف محركاً السبابة والوسطى:

ــ من يومين.

اهتمامـــي بالانتخابات وخلافاتي مع صادق، شغلانـي عــنه طــيلة الأيام السابقة، لكن لم أكن أتصور أن يقيم علاقــة معها بهذه السرعة، تعرف إليها في حفل تعارف الأســرة، التــي انضمت إليها مؤخرا عن طريق حنان. وجههــا يفــيض بجمال آسر، تؤطره ابتسامة رقيقة في العينيــن دائمـــا، وصـــمت جذاب يوحي بقوة وصلابة، أتساءل حين أراها بصحبة حنان: كيف تجتمعان؟!

حـــنان فوضـــوية، تعـــيش بغير نسق يحدّها. الحياة بالنسبة لها لا تشكل أكثر من اللحظة التي تعيشها، تأكل بشـــراهة، تضحك بشراهة، ترغب في الأشياء بشراهة، حتى تشعرك أنها ستموت إن لم تحقق لها ما تريد. أحيانا أشـــعر أن لا يقيـــن لديها في شيء، حتى صادق نفسه. قالت لي ذات مرة:

ـ كان ممكن أحبك أنت مش لازم هو بالتحديد.

وحكـــت لي عن كثيرين أحبتهم، لكنها توقفت طويلا عند أول مرة أحبت فيها. كان زميلها في الابتدائي:

كان اسمه حسان، وشعره طويل وناعم، ويتراكم الزبد حول شدقه والبثور تتناثر في وجهه.

وحـــنان شعرها طويل وناعم، وأمها تضفره لها كل صـــباح، وتجعـــل بعض خصيلاته منسابة فوق الجبين. فتبرز ضياء وجهها الأملس.

حسان اشترى قطعة عجوة بقرشين، وبباقي مصروفه "قلـــم رصاص".. حنان رأت حسان وهو يشير لها أثناء الفسحة.. فتسللت من بين زملائها، ومشت وراءه..

حســـان وارب بـــاب الفصـــل، واختبأ وراءه، وحين دخلـــت حنان قال: (بخ)، فاصفر وجهها.. حسان أخذ

يضحك من حنان التي خافت وسقطت فوق الأرض.

حنان قالت وهى تنهنه بالبكاء: (أنا مخاصماك يا حسان، وخقول لماما)، وتفلت في صدرها..

حسان فض السيلوفان عن قطعة العجوة، وألقمها فم حنان، وقال (لسه مخاصمانى)..

الأولاد رأوا حنان وهى تقسم العجوة، وتضع نصفها في فم حسان، وهى تقول (أنا مش ممكن أخاصمك أبدًا)..

الأولاد التفوا حول حنان وحسان، وأخذوا يرددون في صوت واحد منغم ومتمازج..

حسان شعره طويل وناعم.

حنان شعرها طويل وناعم.

إذن حسان يحب حنان وحنان تحب حسان.

حسان كان يقول كل ليلة لأمه وهو يندس في حضنها تحت الغطاء: (أنا لما أتجوز وفاء مش هضربها زى بابا ما بيضربك) وقبلها والنوم يثقل جفنيه..

حكت لى هذه الحكاية وضحكت بشكل هيستيرى حتى بكت.

قال حامد: إنه لم يكن يفكر في الحب حاليًا، وإن هناك شيئاً واحداً يشغله.

ــ عــارف.. مهم جدًا أنجح السنة دى. حتفرق معاى كتــير. دى أول ســنه أعيشــها باستقلال حقيقي، طول عمــري أبويــا راســم لي الخط اللي أمشي عليه، ولو خرجت تبقى الليلة سوده عليَّ وعلى البيت. أنا بالنسبة له الولــد الكبــير اللى بيجرب فيه سلطته ولو خرجت عن طوعــه يبقى حاسس إن البيت كله فرّ من إيده، علشان كده كان دايما يكسرنى. أنا من جوه بايظ، مش مترتب، محــتاج حــد يلمّنى، يمكن ده اللى شدنى لابتسام.. على فكــرة إنــت شــخص منظَّم جدًا. بس زيّى. محتاج حَدّ يحبك. ياخدك في حضنه ويلم راسك بين إيديه، حد يكون بيخاف عليك بِجَدّ.

إنــت إيه رأيك؟ على فكرة هي بتحترمك جدًا، بتقول إنك مختلف.

ــ بس احنا مفيش بينا كلام.

ــ ابتســام لها دماغ، بتشوف بيها كويس، وأنا عندي ثقــة فيها، إحنا مش متفقين قوى. بس فيه شيء غامض

واخدنا لبعض.

واتجه نحو الشباك، كان الزجاج مفروشًا ببخار الماء، مسح دائرة في وسطه وألصق وجهه بالزجاج شديدًا، حتى تخيلته مرعبا لمن يراه من الخارج، كانت عيناه مثبتتين على طفل في الطابق الأرضي من البناية المقابلة، يجلس على حافة الشباك، مدليا ساقيه إلى الخارج وفرحًا بالمطر ويغنى له.

انتشى قلبى، فرحت أحلم بأن أمشى تحت المطر، متأبطا ذراع من أحبها، نمشى والناس يتفرجون علينا من الشبابيك، ويبتسمون لى وأنا أحاول ضمها إلىّ، وهى تساعدنى، أطوقها من خصرها وأرفعها عن الأرض، أدور بها، ورأسها يتأرجح، فتتدافع قطرات الماء من شعرها نحو وجهى، وأقبلها، أغوص بإصبعي في خصلاتها السائبة المبلولة.

أعانق خدها بخدي ورأس كل منا مستريح على كتف الآخر، حتى لا يكاد يفرق الرائي بيننا.

توقف المطر، أحسست برغبة في دخول السينما، أن أجلس بين الناس، أشاهد العالم في الشاشة الكبيرة وأعيش

حواديـــته، دون أن يراني أحد، مثلما يفعل "محمد قابيل" كلمـــا اشتدت عليه الأزمات.. ترك كل شيء وذهب إلى الســينما يــوم وفـــاة جدته، وليلة امتحان الإنجليزي في الثانوية العامة، وكان يعود منها مرتاحًا.

غـــادرنى حامد بمجرد استقراره في الكرسي، انفصل عنى نهائيًا، وغرس عينيه في الشاشة التي راحت تجرى علـيها حكاية سيدة توفى زوجها، تاركاً لها بنات ثلاث، يقاومــن طــول الوقت السقوط، إلا الصغرى. تفاصيل دقــيقة عــن حياة مُرّة، قاحلة، يقاومها الفقراء بمرارة، مشـــاهد موغلـــة في الإنسانية لفتى أخرس يعشق البنت الوســطى ويتزوجها، بيوت غارقة في مياه المجارى في لــيلة عــرس، وحــياة تزيد الموسرين يسرا، ولا تمنح المحتاجين ما يقتاتون به.

لمحت بكاءه في نهاية الفيلم وصمته في الشارع.

قابلتـــنا امرأة.. طلبت منّا أن نساعدها بشيء لتشترى بـــه علاجـــاً لطفلتها المصابة بسرطان الجلد. أخرج من جيبه جنيهات عشرة وطواها في يدها، فلاحقتنا بالدعاء، بينما كان يسرع في خطوه ويبتعد عنها.

خلع نظارته، تأبطني، في الطريق اكتشفت أنه بدون

نظارة لا يرى. وأنه في يوم واحد يمكن أن ينفق كل ما في جيبه ويبقى طول الشهر أعزل.

سألني فجأة:

ـ فيه حياه بالشكل ده.

ابتسمت ساخرًا، ورأيت أن أحكي له عن مسعود:

– فـــي زيارتي الأخيرة له كان نائمًا على سرير من جريد، في مدخل بيت رطب، معتم.

قـــال لي: (الصبح مراتي قالت لي: البنت نفسها تاكل لحمـــة، كانـــت أول مرة أرى آذان بقر مقطوعة، كانت طويلة، منتصبة، أطرافها تطل من حواف كافة الميزان، يغطـــيها شـــعر يتدرج لونه من "البيج" إلى البني، مكان فصلها عن الرأس في لون قشرة الجرح المنكوء.)

وكانت يده مدلاة على الأرض، فمه يريق اللعاب على خده، فتمتصه وسادة من بقايا قماش قديم.

ـ قل لي إزاي خرجت من المستشفى.

– دكتور ابن حلال قال لي موت في بيتك أحسن من البهدلة.

وأكمل :

(أعطيـــت المرأة جنيهين، ثمن أربعة آذان وأعطتني

فوقهـــم قطعة فشنة، في الظهر كنت أنادى كالعادة، تحت شبابيك البيوت: ألحم الشباشب البلاستيك).

رفعـــت رأســـه بيسراي، وبيمناي ألقمته طعاما لفظه على كفى، وسقط مكابدا غصة في حلقة.

بعد المغرب كان في مكانه، على رصيف محطة أول شبرا، مستندا إلى عكازه، رأسه لا يثبت في اتجاه، فجأة وبساق واحدة عرج إلى منتصف الطريق، ورفع عكازه فـــي وجـــه تاكسي كان متجها إلى نفق أحمد حلمي، ثم أشـــار إلى سيدة تجأر أمام التاكسيات، وعلى يدها طفلة: الزمالك.. الزمالك.

هرولـــت السيدة إلى التاكسي، بينما كان قد انتقل إلى جانـــبه الأيمن، فتح لها الباب. انزلقت إلى داخله شاكرة لــــه.. فقط، ولم تفهم أن هذا هو عمله بالليل.

ضـــحكت مـــن غفلى فجأة لأننا لم ننتبه إلى السلسلة الذهبية التي كانت تتدلى من رقبة السيدة، التي استوقفتنا وطلبـــت خمســـة جنـــيهات ثمن دواء لطفلتها المصابة بســـرطان الجلد، ولأني بعد ما تجاوزتها التفت ورائي، فرأيـــتها تـــنزلق ضـــاحكة بمـــيوعة إلـــى داخل محل

الإكسسوارات الحريمي.

"ألحم الشباشب البلاستيك"

كـــان صـــوت مسعود يثير حنيني لأيام لم يبق غير رمادهـــا، حيـــن كنت أذهب مع أمي إلى سوق الإثنين، وتســـلمني إلى رجل يلحم الشباشب والأطباق البلاستيك حتى تعود.

وكـــان ضوء الشارع بعد باب بيته يعمى، أما قدماي فقد التصقتا بأرض رخوة، عارية من بلاط.

وكان مسعود نائما على سرير من جريد،

في مدخل بيت رطب، معتم.

جسم مستلب الحياة.

حكيت لحامد حتى صرخ فيّ، وضع نظارته على عينيه وتركني.

*

ظننت أنه أذان العشاء.

فتحـــت عينـــي، تناهى إليّ حفيف أقدام جدتـــي وهى ذاهبة إلى دورة المياه، ثم بقبقة الماء وهى تتوضأ.

دقت باب غرفتي وهى تتمتم بالاستغفار والدعاء لأولادها، وذهبت لتوقظ جدى، فتبينت أنه الفجر.. تذكرت أنني نائم من قـــبل عشية أمس، بعد أن تركنى حامد فـــى الشارع ومضى مسرعاً، أو ربما بعد أن خلفت "سهام" محمد قابيل، واقفاً علـــى المدخـــل الخلفى لمحطة القطار ورحلت، لست أدرى بالتحديد.

ولأول مرة لم أرافق جدي في خروجه الصباحي المبكر، حيث أفتح له الدكان، ثـــم أمسك بزجاجة المياه وأرشها على الرصـــيف، وأعـــيد ملأها من المطعم المجـــاور بمـــاء جديـــد، أحملهـــا بيد، وبالأخـــرى صينية ألومنيوم عليها طبق فول بالزيت الحار ورغيف وطبق سلطة

وبصـــلة صـــغيرة مشقوقة إلى أربع..
فطوره.
ادّعيت وهو ينادى عليّ أنني متعب، ولم أذهب لشراء الجريدة اليومية له.
غســلت وجهـــي، واتجهت إلى كرسي الشباك.. وابور سبرتو. كنكة صغيرة، وكـــوب بمقبض على شكل أذن مجوفة. بـــرطمانان زجاجـــيان صغيران. واحد للبُنّ والآخر للسكر.
شـــربت القهوة، وذهبت إليه في دكانه، كان قد أفطر وجلس عاقدًا ذراعيه حول صدره فى ضيق، إذ لم تأته الجريدة.
لـــم أجـــد الأخـــبار عند بائع الصحف،
تُ

شيرين على

ح نغنى ودايما ح نغنى
ونبشر بالخير ونمنى
ونلف الدنيا الذواره
على صوت النغمة الهداره
وإن جعنا شبعنا بتتقضى
ما نبيعش الكلمة بميت فضه
هوا احنا كده وحنفضل كده.

بدا عليها الاندهاش ونحن نردد وراء صديقنا المغنى بحماس وبهجة، لعله – المغنى – لمح ذلك فى عينيها، فراح يستحثها بإيماءات متكررة من رأسه كى تردد معنا، فلم تنبس، وظلت تتابعنا فى صمت وتململ، وحين جاوز قلقها الحدود وبدأت تهمّ بمغادرتنا، غمزت ابتسام لحامد، فلكز كتفى وأخذنى إلى خارج الكافيتريا، وقال إن "شيرين" تعانى من ضيق حذائها، فهى من القاهرة والمشوار طويل عليها.

نظرت فى عينيها، فرأيت الألم مستريحًا على وجهها، بعدها وجدتنى فى قلب بنها، أبحث عن زجاجة سبرتو أحمر.

بللــت بالســبرتو جلد حذائها حتى لان تمامًا، ارتدته وطلبت منها أن تروح وتجيء حتى يتمدد الجلد ويناسب حجــم قدمــيها. كنــت أتأملها وهى تفعل ما طلبته منها برضـــى، كطفلة مطيعة، وعندما ارتاحت قدماها تحولت بسمتها الهادئة إلى ضحكة متفجرة، ممتلئة بالحياة وكادت تعانقنى وهى تصافحنى وتشد على يدى بامتنان ودفء.

أى إحســاس ذلك الذى جعلنى أمشى معها من الكلية إلــى محطــة القطار، سالكًا بها طريقاً مهجورًا، وسط غــيطان الخسّ، الذى أعجبت بقلبه الأصفر المفتوح أمام العالم دون وجل، فاشتريت اثنين وجلسنا على حافة قناة رفيعة نأكله بأوراقه.

- لمــاذا كنــت ضجرة ونحن نغنى، ولا أعتقد أن الحذاء هو السبب؟

ابتسمت قائلة:

- ستغضب لو قلت لك.
- لن أغضب.
- أشعر أنكم لازلتم تؤمنون بالأحلام الكبرى، هكذا كانت تشى بكم أغنياتكم.

- وما العيب فى هذا؟
- لـــم يعد الوقت محتملا، وأخشى على قلوبكم من الهزيمة!

مـــن أيـــة نظرية تاريخية جاءت بكلامها، وما معنى أن يحاكمـــنى صادق وساهر وعبد المجيد ومحمد قابيل فى الـــيوم الـــتالى علـــى ما فعلته معها، وينبهوننى بلهجة سلطوية لأهمية أن أعرف ما يريده الآخرون منى وماذا سيضيف إليهم ما معى، على ألا أسمح لهم إلا بالقشور، ومـــا يعـــتقدون فيه فى نفس الوقت بأنه الجوهر، أما أن أنحنى تحت قدمى فتاة أرستقراطية مثلها وأعالج حذاءها فهـــو أمـــر مشـــين لـــى ولعشيرتى، وبلهجة مسرحية يعرضون جريمتى للمداولة ويطلبون عليها التصويت.

أخذتهـــم الحماسة، فانبرى كل منهم يشرح لى خطيئتى، وأنـــا ســـاكت، ليس فى داخلى غير: تباً لكم جميعاً، فى ســـتين داهية أنتم وأفكاركم إن كان فيها ما يحوش القلب عـــن رعشـــة حقيقية، أو ما يجعلنا نبخل بما نملك على محتاج.

في اليوم الرابع أفاقت تماما، حاولت أن تطـأ الأرض بقدميها، ساعدناها، لكـن فشلت، فازداد حزننا. ارتكنت إلى ظهر السرير، طلبت قطعة جبن قريش ونصف رغيف.

طالعتنا جميعًا، نطقت باسم كل واحد مـنا واضـحًا، وابتسمت وهى ترفع الشكر لله، وتدعو للغائبين بالستر.

ناولت أمي جنيهات خمسة، وقالت:

ـ اطبخوا لرجل البيت، فاليوم.. يوم عاشوراء.

وطبخوا.

وأمـرت أبناءها أن يذهبوا، ويدخلوا مستبشرين على بيوتهم.

وذهبوا.

وطلبت أن تستحمّ، وبعدها أحكي لها حكاية.

خرج جدي إلى الصلاة، وضعت أمي الطشت في منتصف الغرفة والإبريق الـنحاس بجواره، وزنجة الماء فوق

الـــنار.. رأيت أن أذهب لأشترى لها الفــندام الـــذى تحبه، وبالمرة أجهز حكايتي.

بيد مطبقة على الفندام عدتُ سريعًا.. منعتنـــي يـــد أمـــي عند باب الغرفة المقفولـــة من الدخول، وارتكنت إلى حائط الصالة باكية كل الراحلين.

كـــيف لم نكن نعلم أن اليوم هو يوم عاشـــوراء إلا حين أفاقت جدتى من غيبوبـــتها فـــي بدايـــة اليوم الرابع، ودعت لنا بالستر، ثم رحلت، ليتبقى بالبيت أنا وجدى فقط.

.

لم يعد حامد إلى بلدته في إجازة نصف السنة.

بقى بشقته، يشاهد التليفزيون ويقرأ بالإنجليزية.

أذهب إليه كل أصيل، فيصحبني إلى الشارع الذي تسكن به ابتسام، حيث تكون واقفة خلف شباكها البعيد، ويكون المساء قد حوانا بمعطفه. لم أرها أبدًا، ولم أكن متأكدًا إن كانت هي التي تقف خلف الشباك حقيقة، أم

واحدة غيرها. لم أكن أرى غير شبح يقف خلف زجاج مدهون باللون الأحمر الفاتح، وإضاءة خافتة في الخلف، لا تفصح عن ملامح محددة لكائن لا يتحرك.

وحده كان يراها، ويؤكد لي أنها واقفة، فأصدقه ما دام هو يصدق.

حامد هو الذي قال لي، إن حنان كانت تقضى نهاية كل أسبوع برفقة صادق في شقة ساهر، تزوجا في بداية العام الدراسي وقررتْ ألا تذهب إلى أهلها ثانية قبل أن تنجب طفلا، وعلى الورقة المكتوبة بينهما شهد عبد المجيد وساهر، الذي ترك لهما الشقة لقضاء فترة الإجازة، وعاد إلى بلدته، وبعد أسبوع عاد إليهما وبحوزته تأشيرة سفر إلى السعودية، أرسلها له عمه الذي كان يرتب لتزويج ساهر بابنته الوحيدة.

عشرة أيام انقضت، ولم تعد حنان إلى أسرتها.

اتصل أبوها بالمدينة الجامعية، وعلم أنها أخذت حقائبها قبل بدء الإجازة بيومين.

بحث في شقوق الأرض، وبين الموضع وتاليه يتصل بالبيت الذي أنبأه في صبيحة اليوم العاشر بوصولها.

وكان ساهر قد أنهى إجراءات سفره،

خطب ابنه عمه.

قدم اعتذارًا عن حضور امتحان هذا العام، وطلب من صادق وحنان إخلاء الشقة لتسليمها إلى صاحب البيت.

ولم تُرَ حنان في الكلية إلا أيام الامتحانات، بصحبتها أبوها، وكان قد ذهب إلى صادق فى قريته بعد ما تأكد من خلو بطنها من أية بذرة له.

نزل في أول البلدة. سأل عنه. مشى فوق مَدَقّ ترابي طويـــل، فـــي نهايته سأل عن خالة "سر السعادة"، سيدة طاعـــنة، تجلـــس أمـــام مشنة جرجير وفجل وبقدونس وكرات، تنادى على "الورور". وقف يحدق فيها، قبل أن يســـألها عن ابنها. هبت مذعورة، بعد أن تفلت في عبها وعن يسارها، ورافقت الرجل. حطت قدماها على عتبة بيـــت تتصـــدره فـــتاه تبيع الطعمية.. سألتها عن أخيها، وأجابت أنه بالنادي، وأرسلتها إليه.

دخل الرجل إلى غرفة غير مستوية الجدران. تتوسط أرضيتها حصيرة بلاستيك ناحلة.

خلعـــت "ســـر السعادة" شبشبها البلاستيك وهى تطأ الحصـــيرة. جلـــس فوق الكنبة الوحيدة بالغرفة وجلست

على الأرض أمامه. عن يمينه مباشرة كان يتساقط ببطء، خـيط رفيع من تراب أسود من فجوة مظلمة في عروق السـقف، ويحط إلى جواره صانعًا هرمًا صغيرًا، ما إن يتكامل حتى تنفضه السيدة.

جاء صادق،

وبكـل هـدوء طلب منه الرجل تطليق ابنته، وكأنما ينفض عن يده ماءً، طُلِّقتْ حنان.

1996

منذ عشر سنوات:

صـــلى جدي العشاء وذهب إلى أمي، احتســـى كـــوب الحلـــبة باللبن الذي يفضـــله، ثـــم تنحنح وقال بخجل إن إقامتـــي فـــي الغرفة منذ اليوم حرام شـــرعا، فالغـــرفة بما فوقها نصيب عمتـــي من إرث أمها. قالها واستغفر الله وسكت. ولما رأى أن الدهشة في عينـــي أمي قد عقدت لسانها، وكادت دموعهـــا القريـــبة أن تنهمر، أردف قـــائلا: إننـــي حتى صبـــاح اليـــوم، وقبـــل إعـــلان نتيجـــة البكالوريوس كنـــت تلميذا، أستحق المساعدة، لكنى الآن أصـــبحت مؤهلاً لكسب المال، من ثم عليّ أن أدفع إيجاراً لعمتي، أو أترك الغرفة.

وفى صباح اليوم التالى :

ارتـــدت أمـــي جلبابها الأسود ولفت الطـــرحة حـــول رأســـها ومضـــت مســـرعة، وقبل أن تخرج من الحارة

إلى الشارع الرئيسي عادت وأطلقت الدجاج من الأقفاص. فراح ينفض ريشه تحت ضوء الشمس التي لم تشتد بعد.

اختصرت السكة وسلكت طريق الكورنيش، دخلت من باب الشقة المفتوح. اتجهت إلى عمتها مباشرة. همت عمتي بالنهوض، لكن أمي أسرعت بالانحناء عليها وقبلتها وهي قاعدة، ثم جلست إلى جوارها بوجه متكدر، منذ ليلة أمس، شربتا القهوة التي تصنع عمتي كل مراحلها بيديها، منذ أن تشترى حبوب البن الخضراء حتى تحمصها وتطحنها وتخلطها بجوز الطيب والقرنفل والحبهان الحبشي.

لحست عمتي بقايا البن بسبابتها وقالت:

ـ مادام أبوكي قال إنه نصيبي، يبقى بتاع فوزي طول ما أنا عايشه.

وضـــحكت، فشخللت الأساور الذهبية فـــي ذراعـــيها، والـــتمع في وجهها المـــدور ذلـــك النور الذي يحيط به دومًا، وبان طاقم أسنانها الذهبي الذي صـــنعه لهـــا الأسطي إدوار، وكان طبيـــبها قد خيّرها بين أشكال الأطقم المخـــتلفة، فاخـــتارت الذهب، واتفق معهـــا على تغييره كل عامين، بسبب لثـــتها الآخـــذة فـــي الضـــمور، إثر إصابتها بداء السكر، وأردفت: إيجار إيه يا خايبه.

وسط عيون كثيرة تشبع الكتب فحصًا وتقليبًا.. رأيتها – شيرين على – من وراء ألواح خشبية قصيرة تفصل بين أجنحة العرض برزت عينان.. نجمتان.. نقيتان، ينعكس فيهما العالم بصفاء، كأنما تمسح عن مواضع الرؤية القشور وتبقى على ما ينفع.

تحيط الأغلفة بنظرات متأنية، ولا تمد يدها لكتاب إلا نادرا، وحين تلتقطه تضعه مباشرة في كيسها، تأهبا لدفع

ثمنه، وكأنها لم تغب عني لحظة، كأن الوقت لم يمض منذ آخر مرة كنا معاً قبل تسع سنوات.

قدمني لها حامد أحمد، ثم تركنا وحدنا، ولم أره ثانية إلا مساء. ومساء كان الحب في عيني جليًّا، غير متخاذل، فعانقتني.

ربما تخونني الذاكرة في استرجاع ملامح ناس لم أرهم منذ أمد، لكن ملامحها ماثلة بين الجفنين، لم تبرحهما أبداً.. هي الملامح ذاتها التي لقيتها في عيني دعاء التي نزلت في دار السلام..

استرخاؤنا فوق حشائش القناطر الخيرية، طائر الكروان الذي كان يسبح كلما تقابلنا، حياؤها الذي منعها من الجلوس معي على مقهى في الجمالية، فوقفت عن بعد تتملاني وأنا أدخن الشيشة، رذاذ الماء على وجهينا في بحيرة قارون، ألق الرحلة النيلية إلى معبد فيلة.

لم تقل، ولم أقل لها: أحبك.

فقط.. قالت: حين أحبك سيكون ذلك معلنًا أمام الجميع.

نزلت دعاء في دار السلام، وكانت شيرين قد قالت:

أمي تغار منى على زوجها.

قلت: معها حق، فجمالك فوق أن يحتمله رجل.

من المؤكد أنها تعرف ذلك.

وقلت: هل تعتقدين أن ما بيننا يمكن أن يكتمل.

كـــان أبوها هو آخر عائلته الأرستقراطية، مات بعد غربة عشرين عامًا، حصلت في آخرها على الثانوية من الخـــارج، ووديعة باسمها، وكانت تخشى أن ينالها الفقر بعـــد موته.. لقد رتبت أمها للفرار منه بزيجة مرتاحة، وهـــو نفـــس نـــية شـــيرين التي أعلنتها صراحة، كما صارحتني بضعف طموحاتي المالية.

ــ نعم.. هو الحب بعينه، ولكن الحياة شيء آخر.

ــ إذن دعيـــنا علـــى الأقل نتجول فوق أرضه، ربما تصادفنا خيمة، نستجير بها.

– كل ما أملكه لك. إذا رغبت منى شيئاً، فاطلبه ولا تتردد.

– لا أريد غير احتضان كفك.

مدت كفها نحوى وقالت:

– هى لك.

يالها من مفاجأة حقيقية حين اقتربت بكتفها من كتفي حتى تلامسا، فتعملقت بداخلي أول رغبة انتابتني عندما رأيتها.

وقفــت شرين قبالتي.. دققت في عيني، رفعت رأسها إلـــى الســماء الناصـــعة، مارة في طريقها بنهاية مبنى المحاضرات، توقفت عند يمامة بنية دقيقة الجسم حطت علـــى الحافـــة، ثم أحنت رأسها إلى الأرض على مهل، حـــتى التصقت عيناها بقدميها وقالت: لكن الحياة شيء آخر.

ورغم كل شيء كان دبيب اليقظة يسرى في الأعضاء كل صباح، فيغسل الماء عن الأعصاب النامية فوق الجلد ـ كمـــا قـــال لي حامد ذات مرة ـ بقع الحزن الداكنة، ويتوضـــأ القلب من رجس البغضاء والكراهية لكل من امتدت له اليد، ولم يحتوها بين دفء كفيه، فظلت معلقة في الفضاء، مرهونة بإشراقة وجه طيب ينحني إلى جسم ملتف ببعضه، ويلقاه بلسان هامس، بصباح خير معجونة بخـــبرات العشـــاق الحقيقيين في نطق الكلمات. وكنت أمضي إليها.

آخر ما توقعته هو مقابلة الحكايا القديمة، بعد كل ذلك الوقـت، وفي غير أماكنها.. أن تتبعث في هذه الأجواء بالذات مشاعر راحت أيامها ولم يبق منها إلا رحيق حلو يزورنـي كلما اشتد إحساسي بالخدعة. ربما هذا هو ما جعلنـي مصـلوبًا في مكاني، أتابعها حتى اتجهت إلى الخارج، بين كوكبة من أخريات التقين بها وصعدن معا حافلة كانت واقفة في ساحة انتظار أسواق اليورومارشيه بوسط مدينة الرياض، وأخذت شيرين موقعها بجوار أحد الشبابيك.

أزَّ محـرك العـربة، وامتدت أصابعها تزيح زجاج الشباك، تحركت مقتربًا من نافذتها، لمحت عيناها عيني، لـم تـبص باسـتغراب كما حدست، التفتت إلى جارتها وعادت تنظر من جديد، ثم ابتسمت، هزت رأسها خفيفًا ونطقت اسمي بصوت خفيض، لم أسمعه واضحًا، لكني شـفت حروفه في حركة شفتيها، فنطقت باسمها، رددته بصوت مشروخ أشبه بحشرجة محتضر، حتما شافته قبل أن يفـر السـائق بالعربة إلى وجهة أنَّى لي أن أعلمها، وفي بلد لا أدرك دروبه ولا تدركني.

وكأنها قالت:

- لـــن تتغـــير.. هي ذات الدهشة في عينيك، ستظل تلجمك عن الفعل.

وكأني قلت:

- وماذا غير الدهشة؟

ضحكت، وكست صوتها بنبرة أستاذية وقالت:

ـ سحابة دموع تضفي لمعانا على لونهما العسلي يا ولد.

وكـــان الليل ينشر أغطيته على جسد العالم، وصوت مـــاجدة الرومي يتسرب من سيارة واقفة، شاديا بحكايته الأزلية:

ساعات أقوم الصبح قلبي حزين
أطل بره الباب ياخدني الحنين.

إنهـــا العـــادة الغالـــبة إذن.. أن تنتهي هذه الأوقات بخيـــبات ســـافرة قميئة، فيالحسرتك وأنت تقلب الآن في وجوههن عن كائن يشتهي مثلك المستحيل.

لم أكن أحلم بأكثر من أن تحط شيرين بغرفتى ولو للحظة واحدة.

تلمس بيدها الأشياء التى أستعملها، تعد لنا فنجانى قهوة وتجلس على حافة السرير إلى جوارى وأنا ممدد، تلامس بخدها خدى، ليس أكثر! وبعد أن ترحل تبقى رائحتها فى الغرفة، مثل تعويذة تحمى الروح من غوائل الصمت والوحدة.

ساهر حشيش

ما كان يبحث عنه بلهفة لم يجده.

توقفت أصابعه في اللحظة التي رأى ابتسامة شامتة تستريح على وجه أمه، التي باغتته دخولها، فاستكمل انتشال رأسه من تجويف الكومودينو المعتم، وأغلق ضلفته بهدوء.

نفض أصابعه..

ــ حد خد المفتاح غيرك

ــ لأ.

وجلجلت بالضحك، فضحك.

بقدر ما طمأنت هواجسه.. خاب أمله، وفُضَّ الشوق الذي رافق السكة من بلاد بعيدة إلى هنا.

كان يبحث عن قطعتين من ملابس زينب، البنت التى كانت تزامله فى الشركة التى عمل فيها بعقد مؤقت إلى جانـب الدراسة، وقد أصر على الاحتفاظ بهما في آخر لقـاء لهما قبل سفره، هى تلك اللقاءات التي ربما مازال جسـد أيامهـا يحتفظ بخمش أصابعه وغرز أسنانه فيه، وتشهد عليه غرفة المراجعة. ربوة القلعة. سفح المقطم. ميدان رمسيس. زحام العتبة، وخلاء كورنيشِ الزمالك، حيـث كـان الفعل يستلبهما، فتشتعل الحرائق خلسة في كثير من الأوقات، علنا في بعضها، حيث لا يتوقع أحد، وإذا تلمحهمـا مـدام سحر، تتلمز وتطلق زفرتها الحادة المشـهورة، فـيرتفع صدرها ويهبط فجأة مستقرًا، بعد رجرجة خفيفة تأخذ بمطامح زملائها العارفين، الجالسين وراء مكاتـب معدنية رمادية تشكل مربعًا ناقصًا ضلعًا، وتطلق شياطين التخيل من معاقلها.

مـا كان يبحث عنه بلهفة لم يجده. توقف في اللحظة التي اقتحمت عليه الغرفة أمه.

ـ ما تتجوز بنت عمك ياوله، وتتلم عن بنات الناس بقى، مش كنت زمان بتحبها يا وسخ.

ـ لـو لسـه قلبي شايل رغبة فيها، كنت أخلعه من صدري وارميه للكلاب.

أحكـم الغضـب كماشته على وجهه، ولم يستطع أن يزيح غيظًا تجلى في ضغط أسنانه على مخارج الكلام، ناقلاً مللّه من سيرة الزواج التي لم تَخْلُ من مجلس حَطّ به منذ آب، حتى عَفّ مجالسهم.

لـيس يرغـب في امرأة يخرس بعد الزواج لسانها، وتصـير مثل طقس أغسطس المكتوم، ولا امرأة تتحول إلـى شـرطي يحسب عليه نأماته ويترصده حتى حافة الأحلام.

ـ واحده زى سحر يعنى.

– اللى زى سحر ما تسمحش لراجل بامتلاكها.. دى ممكـن تسـتنزف حياتك، مقابل لحظة متعة سرعان ما يروح طعمها، ولا حتى زينب كانت تنفع.. جلدها تخين.

ذي سـكة أدبرت، والقطعتان اللتان كان يبحث عنهما عـثرت علـيهما أمه بين حاجاته بعد سفره، وتخلصت

مـــنهما، فأغلقت الأبواب، وبنت العم التى كان يحبها فى الصبا تراجع عن كلامه بشأنها مع أبيها، الذى أرسل له عقـــد عمل بالخليج وهو طالباً مازال، بمجرد أن طابت إقامته هناك قطع علاقته بعمه ولم يعد يزوره، لا لشىء إلا خشـــية أن يقال إن عمه وابنته هما وش السعد عليه، وأنهمـــا وراء ما سيصيبه حتماً من رغد فى العيش، لا يـــريد أن يمكِّن مخلوقاً من ادّعاء فضل عليه، ثم أسابيع قلـــيلة أعقبـــت عودته وكان بين جناحى زوجة عاشرها دون أن تنقطع رغبته فى زميلته القديمة التى لم يعثر لها على أثر منذ عودته، كان يتمنى رؤيتها ولو لمرة واحدة أخيرة، يختتم فيها أحداث لقائهما الأخير الذى كان بارداً، ومبـــتوراً لحزنها على سفره، ولم يكن فيه ما يبهج غير مناورته العنيفة التى أسفرت عن فوز يده بمجرد قطعتين دقيقتيـــن من ملابسها، أخذهما للذكرى دون أن يزيد، لم تخـــبُ رغبته تلك إلا حين داهمته "نوال"، سكة لا يدرى أين مبتداها. سكة جديدة تمامًا.. همزة صلة بين طرازين متعارضين.. طراز التايورات المضغوطة عند الخصر، الواســـعة فـــيما دونه، وطراز الإستريشات التى تكاد أن

تكون مجرد ألوان على الساقين.. زينب وهى، ونظرات زملائــه توشى بحسرة مفضوحة لما آلت إليه الزوجات مــن روتينيــية بليدة، لم تكن بالحسبان مطلقًا، فالشكوى توحـــي بأسى حقيقي، وفى العيون إحساس بفقد طزاجة الأقمشـــة وحداثتها المبهجة، والأصابع المرتبكة تتشوف للمســـة مرتعشـــة، ممتلئة ببراءة البدايات، أما الأعزب الوحـــيد بينهم فليس يفهم بعد لماذا نظراتهم نهمة هكذا، ومهمـــا شـــرحوا وعللوا فقد كانوا بالنسبة له دونًا، وفى صـــمت يكـــابد حـــبًا لها تأخر في إعلانه، فالتُقِطَتْ منه وتُرِكَ في العراء.

وهـــى الفـــتاة.. بوجـــه تســـر الناظريـــن بيضاويته المســـتريحة، وقامـــة متسامقة. بشفتين ممتلئتين، تتعاقب علـــيهما أصـــابع طلاء الشفاه.. يا للون البني من جرأة وتوحـــش يوم يتوسدهما، بأصابع رفيعة بيضاء تتناوب أظفارها ألوان الطيف، وفى يوم الخميس تطليهم بالأسود المـــزركش بالفضي، فيصبحون حين تفردهم أمامها مثل خريطة دقيقة الخطوط، واضحة المعالم.

– جمالها الأنف فوق أن يجعل الإنسان مجرد أصابع

تمــر فــوق الأوراق بأدب مبالغ فيه أو صوت حَيِيّ في حديــث مبتور، مضطر لفقء عينيه أمام أنوثة متفجرة، من نبع ثرّ، مجهول، كالموسيقى.

"يومـــا ما سآخذك لتراها، لتعرف كم هم معذورون ومحرومون".

*

هل يمكن أن ينصلح الوقت ذات مرة، ويدفع فى طريقى ببنت تكون بعضاً من شيرين. بنت فى مثل دعاء التى نزلت فى دار السلام، تقبل أن تحيا معى فى هذا البيت؟

أم أن الغرفة ستبقى شيئاً يخصنى وحدى. يدخل إليها الأصدقاء ويخرجون منها بعدما يعلق بأرواحهم شىء لم يدر أحد كنته. مع ذلك لم يعد نتقابل إلا صدفة، والحكايات القديمة معلقة فى الفراغ. تشهد عليها رفوف الكتب ودولاب الملابس البلاستيكى وصورة الكعبة فى التجويف.

عبد المجيد رسلان

قابلته صدفة. جسد مائل إلى النحافة ورأس بمقدمة صلعاء وشعر خفيف في الجانبين، يغلب عليه البياض.

كان عبد المجيد رسلان ينتظر المترو القادم من شبرا، باتجاه التحرير، وعيناه تتنقلان بين الواقفات على الرصيف، دون حملقة في واحدة بعينها.

نزلنا معًا محطة رمسيس، وعلى مقهى في الميدان قال إنه يعمل في شركة بالمهندسين، وإنه لن يذهب إلى هناك اليوم، لأنه رآني، وقال:

ـ نفسي أقضي يوم في الحسين.. عارف ما رحتش هناك من إمتى؟ من يوم ما كنا مع بعض. إنت وشيرين، وأنا وسعاد.

ـ أخباركم إيه.

تنهد قائلاً:

ـ عندنا ولد وبنت.

ـ مستريحين

ـ حياة عادية.

ومرت أمامنا فتاة، اشتبكت عيناه بجسدها حتى غابت، كان هذه المرة يحملق بشدة، وحين عاد إليَّ أبدى إعجابه بنحافة الفتاة، ونضارة بدنها.

ـ اتجوزت؟

ـ لأ.

ـ وشيرين؟

ـ ..

ـ مع إنك سافرت.

يتكلم بيقين لم يكن يسكنني، ولأول مرة أفكر في الأمر برمته، ربما لو كنت تحدثت مع أحد أيامها فيما أحسه وأعانيه لضحك واستهزأ بي، لكنها الحقيقة.

كانت نجوى ـ ابنة أخي الذي طلّق زوجته وسافر ـ قد رسمت الأنوثة جسدها. خوفي عليها جعلني أحاصر حركاتها، نعم كنت أثق فيها، لكن شيطان المراهقة يختبئ بين اللحم والجلد، وبغتة يفترسنا. يطلع علينا بأنياب حكاية متشابكة ومعقدة، ومهما كانت رعايتي لها، إلا أن أرضها رخوة وأيامها وحياتها ثوب مرتق. نفذ من ثقوبه ولد أربك أيامنا. نفت أن تكون بينهما علاقة إلا في خياله هو. نسجها وسربها لأصدقائه، فلاكتنا الألسنة، وصار كل من تصله الحكاية من الأسرة أو الجيران خبيرًا بعلم النفس وأصول التربية، حتى استفزني الأمر. وأحسست أن الحكاية برمتها ـ وإن كانت وهما، حسيب تأكيدها ـ

إهانة تستهدفني مباشرة وتتهم تقصيري في مسئوليتها. تحرشت بالولد مرات، وفى كل مرة كان يفلت منى.

حكى لي حامد ـ من قبل ـ حكاية مشابهة، جرت لأخت صاحب قديم له، وحلت بطريقة مازالت أندهش لها كلما تذكرتها: استدرجوا الولد إلى بيتهم، وحين أمسى بين أيديهم خدروه، ثم حقنوه بعقار منشط لهرمونات الأنوثة. وابتعد الولد عن البنت تمامًا، بل كان يومًا وراء يوم تظهر عليه ملامح أنثوية خفيفة.

كانت الحكاية تعجبني وكلما استرجعتها حسدت فاعليها على جرأتهم. تلك الجرأة التي أفتقد إليها معظم الوقت، لكنى أغتبط لأصحابها.

في المرة الأخيرة اشتبكت معه. حاصرته بين حائط في الشارع وبيني، وأخذت ألكمه وأركله، حتى تجمع الناس حولنا. أفلتوه من قبضتي، لكن الغضب كان قد استبدّ بي، فانقضضت عليه مرة ثانية وأوقعته على حافة الرصيف، ضربته بعنف لم أعهده فيَّ.

فُضَّ الاشتباك، وعند الفجر آلمني رسغي.

ذهبتُ صباحًا إلى المستشفى، وأجريت صورة أشعة

ليدي، ثم رأيته أمامي وأنا خارج من قسم الأشعة. كان بصحبة أمه. سيدة بسيطة، لا تعلم شيئًا عن زوجها المسافر منذ عشر سنوات، حتى صار في عِداد المفقودين. كان الولد يربط ذراعه اليمنى ويحملها على بطنه برباط معقود إلى كتفه. أشار إلى، فنظرت أمه نحوي. التقت عيناها بعيني، لم أر ذلك القدر من الحزن في عينين من قبل. اقتربت منى ورفعت يديها إلى أعلى، تدعو عليّ ، ثم أزاحت الطرحة عن رأسها ومسحت عليها بكفيها، فبكيت ورجوتها أن تسامحني.. انهمرت باكية، فَأخذت الولد في حضني وربتّ رأسه.. تأسفتُ له. عاتبتني. ووجدتني أنهمر عليها مقبلاً رأسها.

حاصرتني عيناها الحزينتان لوقت طويل، كنت أراهما دائمًا وأسمع دعاءها عليّ يتردد في كل مكان ، يغيب لحظات ثم يعود قويًا. وأمسيت أتواجد خارج الغرفة لفترات طويلة ولا أدخلها إلا مهدودا، وحين أحط جسدي على السرير يشرق الإحساس بالذنب. إحساس ممضّ، لم أُعايشه من قبل.

كانت "سيدة قابيل" توقن أن أمرًا ما يحزّ بنفسي، لكنها

لا تعلمه. حكيت لها ما حدث ولم أتكلم عن الشعور الذي خلفته الحادثة، رغم حاجتي الملحة للتخلص منه، إلا أنني لم أكن أحب أن أتعرى أمام من يعرفونني.. أكره الإحساس بأن ضعفي مكشوف ومفضوح، ليس فقط إلى الدرجة التي تجعل الآخرين يعرفون ردود الأفعال مسبقًا، فيلاعبونك ـ أحيانا ـ من نفس المنطقة ويضغطون عليها، وإنما بأي شكل يؤدى إلى معرفة الداخل، تلك القوانين التي لا تَخُصّ أحدًا سواي، وعلى الرغم من أن سيدة قابيل لا تثرثر بما تعرفه عن الآخرين إلا أن الأمر ارتبط بفكرة الضعف والقوة، بالتحديد بأن أظل قويًّا في نظرها. كان ذلك الإحساس جديدًا تمامًا عليّ، أعانيه وحدي، ووحدي بين تلافيفي واشتباكاته الغامضة التي فتحت أبوابًا كانت مغلقة، قادت إلى أبواب أخرى وأبواب، هكذا ارتسمت المتاهة.

"لم أسافر من أجل المال وبناء المستقبل يا عبد المجيد".

كان ساهر يراسلني من الخارج، وقبل ذلك الحادث بشهر كتب يقول: إنه يبحث لي عن فرصة عمل، في

إحدى المؤسسات التي تتعامل معها الشركة المتعاقد معها هناك وإنه لم يخبرني بهذا إلا حين بات الأمر وشيك التحقق، وقال: انتظر تأشيرة بين يوم وآخر.

لم أحكِ لأحد عن الفرصة المأمولة، تعاملت مع الأمر كسرّ عسكري، باستثناء أمي التي باركت خطاي، وأرفقتها بالدعاء، وأنا أعلم أنها تطوى إحساسًا قاسيًا بالوحدة التي سوف يحيلها سفري أنا الآخر إلى غول يهدد أيامها، لكن إحساسي بالذنب ورغبتي في الخلاص منه كانا أكبر من رأفتي بها.

وكان على أن أتكلم بحماس معها طول الوقت عن المستقبل والمال والزوجة والأولاد المرتقبين، حتى أمست ترتقب سفري، وهى تنطوي على ألم عظيم.

لقد تركت البيت منذ الصباح يوم سفري، لم تودعني، ادّعت أنها خارجة للتسوق وذهبت إلى جيراننا بالدور الثاني في البيت المقابل. جلست وراء الشباك المطل على مدخل بيتنا، تتابع دخولي وخروجي وأنا طيلة الوقت أقطع المسافة بين بيتنا وغرفتي جيئة وذهابًا.. بين دموع جدتي ونشيج نجوى المتصل، وعندما جلست في السيارة

التي جاءت لتقلّني إلى المطار، أطللت من وراء الزجاج عليها، وسافرتُ.. ليس يشغلني غير الخلاص.

الآن.. أدرك أن الأمر كله كان خدعة.

(أية خدعة تلك التي دبرت بمكر شديد لاصطيادنا.. نحن الرقيقين، أصحاب القلوب الرهيفة، عشاق الجمال الحقيقي الآسر، الآخذ بالألباب، المرتقي بها إلى سماوات الوصل الإنساني الحقيقي، لا الزائف؟

أين الواعدات ببيوت لا تسكنها غربان الروتينية والملل والضجر؟

في أي قبر دفنت تلك القدرة على الإدهاش؟. أين الطزاجة؟

راحت البكارة إذن، وبقيت الخدعة!

وأنت لا يمكنك أن تبقى ثورًا في ساقية لا تسمع حتى دعاء زائفا بأن توفق أو تبقى حيًّا. تباعد الطرق بين الجزائر.

تباعد، ولم يعد هناك ما يحفز!)

كان عبد المجيد يتحدث وكأن محمومًا يهذى، كأن محتالاً سلبه شيئا ثمينا لم يكن يملك سواه، وتساءلت وهو

يهذى كذلك، عما كان سيؤول إليه حالي لو كنت قد تزوجت شيرين، يتكلم عن البدانة المفرطة التي آلت إليها سعاد بقرف مفرط، وعن البلاهة التي تنتابها كلما تقمصت شخصية رقيقة وحاولت تقليدها في مشهد ممسوخ.. حتمًا كنت سأكرهها، لقد رأيتها بعد أن تحول جسدها إلى زوائد لحمية مضغوطة تحت ملابسها، وحين تحققت من وجهها بدا عريضًا، بأنف كبير، ذي فتحتين واسعتين.

جلسنا على مقهى في خان الخليلي. عدنا إلى وسط البلد، دخلنا سينما، وشاهدنا فيلم يوسف شاهين: المهاجر، وتناقشنا طويلا في شخصية رام، ولم أساله عن حقيقة ما به.

علم منى أن ساهر عاد من السفر واستقر نهائيًا بمصر، وأخبرني أنه لم يكن يحب ساهر ولا سعاد كانت ترتاح إليه، تقول إنه بلا قلب وعقله مرتب ومحدد بصورة مزعجة.

وكان ضجرًا، متنقلاً بحديثه من أسى إلى أسى، مستاءً من زحمة الهواجس في الرأس والناس في

الشوارع، لاعناً عجزه عن ملء بطن العيش، وعن إيجاد موضع لقدميه. وكان أكثرنا ضجرًا لمّا أشرف بركبنا سائق الميكروباص على وضع النهاية، منحرفًا عن امتداد الطريق الأسفلتي، منزلقًا إلى حافة ترعة.

كان أول القافزين من الشباك، صائحًا بي: شهّل خلينا نرجع لعيالنا.

ولم يكن لي عيال ولم تكن بي رغبة.

أريد أن أرى شيرين لمرة أخيرة،
أنام على صدرها، لأنى لم أفعل
ذلك، أعانقها مودعاً، عناقاً يليق
بحبيبين لن يلتقيا مرة أخرى.

نزلت دعاء في دار السلام، والقلب الناشف مازال ناشفًا. الحاجة إلى فتاة مثل فتاه صديقي القديم حامد تشتد، الفكرة.. الهاجس.. صارت عوزًا حقيقيًا، يحفر مساراته في صفحة الوقت المتكررة بدأب لا يفصله إلا حسابات المكسب والخسارة المحتملة، تلك التي أجهضت نبتات رقيقة، كانت تتشوف للطلوع. بددت آمالاً وضيعت وجوها ممكنة سابت من بين أصابعي.

وجه دنيا كان باسمًا في حركته، رائقًا في صمته. بدا جسدها دقيقا من بعيد.. تقف مع أخرى قمحية، امتلاؤها الفج جعل دنيا مثل فراشة. كانتا تشيران للسيارات الذاهبة إلى رمسيس. اقتاد عبد المجيد زميله الجديد ساهر بخفة ومكر إلى دنو منهما، ممنيًا نفسه بعدم إفلاتها منه. اكتشف ساهر الحيلة، فابتسم.

ـ اسكت خالص.. أرجوك.

وافقه في الوقت الذي توقف فيه أمامهما الميكروباص، وقبل أن ينغلق الباب كانا قد لحقا بهما. استقرت البدينة في الكرسي الأخير، لصق الشباك، واجه عبد المجيد شريط أبيض من ظهرها، كشفه فرار حافة التي شيرت القصير من بنطلونها، لم ير ما رأى. فقط رأى وجهها الرائق وهو يلتفت إليه، بعدما ما قَرّ جسده إلى جوارها مباشرة وترك ساهر للكرسي السابق.

لمح طرف عينها اليمنى ترمقه، ورأى طرف عينها الأخرى وهى ترسل لصاحبتها غمزة خفيفة. واصل ساهر كلامه عن أيامه القديمة مع زينب، ثم سكت حين ولج الكلام إلى تفاصيل ما كان يحدث في غرفة الحسابات، قبل توافد الموظفين صباحًا، وكانت رغبة عبد المجيد الخفية أن يكمل بذات النبرة الخافتة ليرسل إشارة إلى البنتين تفيد بمعارفهما السرية. أولاه ظهره، فتولت يده تعسعس بين أوراقه عما يلفت انتباه بنت متململة، تدفع زميلتها بكوعها كل حين.

حدق فيها بجرأة جاوبتها دنيا بسؤال عن كبريت، لم

يشأ أن يرد طلبها بسخف يفسد احتمالات البدء.

كانت تحتاج إلى نار وهو بحاجة إلى سيجارة، واليوم في بدايته وللأماني طعم عذب. استعار ولاعة من أحد الركاب، وبشفتيه أشعل النار في سيجارتها. كانتا تدخنان في حياء حاول إزاحته بدفعهما لنفخ الدخان عاليا، فأشارت إلى الركاب والسائق الذي حتما يرى عبر مرآته.. لوح في الفراغ باستنكار، قواه امتعاض أنفه وحركة شفتيه، فارتاحتا إلى الفكرة وراحت حلقات الدخان ترسم أشكالاً متراقصة.

كلمات عصية استجمعها من هنا وهناك، امتدت على ظلالها يد دنيا إلى حقيبتها المجدولة بسيور جلدية رفيعة، وأخرجت صورا تسجل لحظاتها المختلفة.

ــ دول أصدقائك في الجامعة.

أومأت برأسها وراحت تحكي بنشوة:

- كثيرًا ما كانوا يتلصصون علينا ونحن نستخدم السلم الداخلي للمدينة الجامعية، ودائما كانت معاكساتهم تضحكنا. كانوا إذا رأوا واحدة منا وقد ارتدت فستانًا كاشفًا عن كتفيها أو صدرها، يطلق أحدهم صفارة مميزة

يـتوافد الآخرون على أزيزها، في تزاحم على الشبابيك والشرفات، يصفرون جميعًا في صوت واحد، ويلوحون لنا بمناديل بيضاء.

كـنا نلوّح لهم في بعض الأحيان، وفى أحوال كثيرة نتغاضب ونمضي سريعًا إلى الإدارة كي نشكوهم.

وكعادتـنا ونحن في المطعم كنا نخبط بالملاعق على الصـحون والترابيزات، فتنطلق أصوات رفيعة.. حادة، نصفق على تناغمها أو نغنى.

وكانت أصوات تحركهم داخل مطعمهم تنفلت إلينا ـ دوما ـ عبر الجدار الخشبي الفاصل بين المطعمين، لكن وبعد أن أغلقت الإدارة شبابيك وشرفات مدينتهم المطلة علـى سلم مدينتنا ولم نعد نراهم إلا في الأتوبيسات التي تنقلـنا إلـى كلياتنا في الصباح وتعود بنا في المساء.. لاحظنا أنهم ـ هم الآخرون ـ يفعلون ما نفعل، حتى إن أصواتهم كانت تأتي كصدى لأصواتنا..

نخـبط، يخبطون. نصفق، يصفقون. نغنى، فيغنون، ولكن في خشونة وغلظة.. نسكت، فيسكتون.

وكـنا إذا نلتقـي بهم في السيارات يعاملوننا بلطف

وأدب، فإذا ما صعدت واحدة منا إلى الأتوبيس المزدحم بـــالطلاب وأحدهم جالس، ينهض ويجلسها مكانه، ويظل مطرقًا إلى الأرض في حياء.

واليوم لمحنا من شباك الأتوبيس فتى يتأبط ذراع فتاة وفـــى عينـــيهما وجـــد رقيق، فغمزت الواحدة للواحدة، والواحد للآخر، حتى سرت في الجو آهات لينة، فجأة.. انفـــك صـــوت أحدهم ــ هادئا ــ بأغنية أسيانة، ثم علا وعلا، حتى وجدنا أنفسنا نغنى وراءه.

كانت قد أفرغت في الهواء دخان سيجارتين وفى قلبه حكايـــة، فهيجـــت حكايات بعيدة، لم يعثر من بينها على واحدة مكتملة غير هذى، فقال:

زمان .. كنت أسأل والأولاد يجيبون:

ــ ماذا نلعب الليلة؟

ــ الاستغماية

ــ لأ.. لمس الحمام.

ــ حلوة؟.

كانـــت تجـــرى ورائي.. يدها تحاول لمس جسمي، فـــأتمهل لتمســـك بـــى، وتعـــود إلـــيهم قائلة: ها هو، فيضحكون.

ـ وكل الحمام يطير في جماعات ويحط على الأرض في جماعات، لكن اليمام لا يطير ولا يحيط في أسراب، بل يمضى اثنان.. اثنان، وكنا قديمًا نختبئ وكان بعضنا يعثر علـــى بعضه، وها نحن صرنا نلعبها دونما اتفاق، نصطدم ببعضـــنا في الشوارع، فنتماس بالتحيات السريعة، ويمشى كل منا إلى حاله.

وفـــي المـــرة الأخيرة، حين جرت ورائي، وأمسكت يـــدي.. بقيـــت محتضنًا كفها طويلاً، ومشيت بها عكس الطـــريق التي ينتظرون عند أولها، ولما قابلتهم صدفة، سألتهم:

ـ ماذا نلعب الليلة؟

نظروا إليها، وقالوا:

ـ لمس اليمام.

وضحكوا.

كان ينظر في عينيها، ويده طول الوقت تحاول لمس جســـدها، ولمـــا صار الكلام يتدافع وحده، نحو بوابات الممكن فاجأته بما لم يكن في البال:

ـ بس أنت عجوز قوى، وشكلك متجوز!

أي أسى حَطّ عليه وقتها، بينما كان ساهر سادرًا في

نوبة ضحك شيطانية..

لماذا صار الوضع ثقيلاً ولزجاً، يتحين نهايته.

ـ أصلك مغفل، ما حدش يتكلم مع عصفورة زي دى عن العمر اللي جرى والأحزان، دول عاوزين يقضوا وقتهم. أنا كنت سامع الحوار كله. إنت اللي مافهمتش.

وضحك ساهر، بينما كف عبد المجيد مقفولة على ربع جنيه جديد أعطته له "عيدية"، فقد كان العيد غدًا.

لماذا لم تأت معى شيرين إلى سيدة قابيل وتتعرف إليها. شيرين التى كانت تحب البيوت القديمة وتتمنى أن يكون لديها قبقاب خشبى مثل الذى عند جدى. وتحب رائحة السجائر التى أشربها.

لماذا ظل لقاؤها بسيدة مجرد أمنية ووقفت فى طريقها الحوائل.

علمت أن محمد قابيل سوف يأتي قريبا؛ ليحضر زفاف أخيه الأكبر.

وكان منذ سنوات تسع قد فرغ من صلاة الجمعة. التفت يسارا، وجد شقيقه الأصغر بجواره. ابتسم له، وتناول حذاءه وخرج.

كان عازمًا منذ الصباح أن يذهب إلى أبيه في المحل بعد الصلاة، يعرض عليه الفكرة.

لقد تخرجنا منذ عام وأوشكنا على الانتهاء من أداء الخدمة العسكرية، والآتي في عيوننا غائم، الدفعة التي

تخرجت قبلنا لم يجد معظمهما عمل حتى الآن.

دفعه للتفكير في الأمر شقيقه الأصغر، الذي دخل الجامعة وصار يتحدث طويلاً عن المستقبل.

إنه يشعر تجاه أخيه بأبوّة مفرطة، دائمًا قلق ويخشى عليه من الانحراف، الذي يرى أن أسبابه أمست تحيط بنا من كل حدب.

قال لي مرة: إن هذا الولد سوف يأتي بفعل، يباغتنا جميعا به!

ولم يحدس نوع الفعل، لكنه كان على يقين وهو يتحدث، وبدا لي أنه يعرف شيئًا لا يريد التصريح به. وأردف:

ـ دي مجرد فكرة.. دايما تهاجمني، وتسيطر عليّ.

تحدث في البداية بصوت هادئ، وكان أبوه يستمع إليه بلا اكتراث، وكأن الأمر لا يعنيه، وحين تكلم، راح يثرثر بموضوعات لا علاقة لها بالأمر فأدرك رفضه.

احتدّ محمد واتهم أباه بالأنانية؛ احمرّ وجه الأب ونفرت عروقه وهو يتهمه وأخويه بالطمع والتواكل. وزعق فيه:

ـــ ده مشروع لينا كلنا وانت معانا.

ـــ لما أموت خدوا الدكان واعملوا اللي انتو عاوزينه.

امتد الحوار طويلاً تسوده نبرة غضب من الطرفين، وبكى محمد وهو يشرح لأبيه كيف يشعر بالقلق على أخيه الأصغر.

ولما أدرك أن الحوار بلا طائل من ورائه، انصرف وهو يشعر بالانكسار.

عاد إلى البيت، وبمجرد دخوله أخبرته سيدة قابيل أن شقيقه الأصغر مات، صدمته سيارة عند نفق كفر السراي، وقبل وصوله إلى المستشفى فارق الحياة.

هل يخبر سيدة قابيل أين كان قبل مجيئه!.. هل كانت بسمته في الجامع بعد الصلاة وداعًا.

هل يعود لأبيه ويقول له: مات من كنا نتحدث عنه.. تركنا على حافة الحديث ومضى.

لقد بقي ساكتًا.

عشرون يومًا. نائمًا على سريره بملابس الخروج، يحملق في السقف، لا أحد يعرف إن كان ينام أم لا.

يدخلون له الطعام، فلا يمس. فقط يقضم جزءاً من رغيف، ويلقى ببقيته إلى جواره على السرير. وفي اليوم

العشرين انطلق صوته فجأة، بآهة عالية. طويلة، اهتز لها البيت، ثم بكى، انتحب بصوت مرتفع وانهمرت دموعه بغزارة.

وبنفس الشكل المفاجئ، جاءني في الغرفة، طلب فنجان قهوة، وقال: أريد بعض الكتب التي لا تحتاج إليها، وأخبرني أنه سيسافر إلى إيطاليا فجر الغد، وأنه جاء يودعني.

تركته في الغرفة وخرجت أهيم في الشوارع بغير هدى، ولم يعد من وقتها، ثم عرفت من سيدة قابيل أنه تزوج هناك، بفتاه من تورينتو، وبعد عام لحق به أخوه الأكبر، لكنه كان يعود كل عامين. يطمئن على أمه التي مازلت أصطحبها مرتين كل أسبوع في رحلتها، حيث تسلم عروقها لكف الممرضة، فتغرس بها رءوس الإبر السميكة، تكتم الألم في أحشائها، والدم عبر الأنابيب الشفافة يمر إلى ماكينة الغسيل.

تن.. تن.. تن

دقـــات ثلاث يعلن بها عن نفسه الولد الذي هو في شرخ الشـــباب ــ زميلها في يوم غسيل الكلية ــ ثم يدخل مغنيًا في تمايل:

حاجة أمال يا أبهة

إيه العظمة دى كلها

وتبتسم وهو يحرك أصابعه بحركات بهلوانية، بعدها يقفز في الهواء دورة تحطه على السرير، وبأعلى صوته يعلن، وهو يمنح عروقه للممرضة:

بص .. شوف

أسامه ح يعمل إيه

ثم يصمت لما يطالع بعينيه دمه الراكض إلى الجهاز.

كم من مرة اعتقدتُ أنه مات، فتنادى عليه: أسامه.

وتطول دقائق قبل أن يرد على صراخها المتكرر:

ـ ما تقلقيش يا حاجة.. لسه عايش.

ويــروح مــرددًا بصوت يأخذ في الخفوت حينًا بعد حين:

حاجة أمال يا أبهه

إيه العظمة دى كلها.

كــان محمد قابيل يرتدى بذلة سوداء لامعة، وقميص وردى مفــتوح حتى منتصف الصدر، حيث تظهر قلادة ذهبــية ثقــيلة. ابيضــت بشــرته قليلاً باستثناء بعض

الاخضرار مكان شعر الذقن. ومالت إلى النضارة. على عينيه نظارة شمس وشعره منكوش، وفي قدميه حذاء برقبة طويلة. تفوح منه رائحة هادئة، لكنها واضحة وقوية.

لم أذهب لرؤيته في اليوم الأول، رغم اشتياقي له، دائما أتحسب لهذه الأشياء، خشية أن يتصور أحد أني ساع للهدية، والحقائب مفتوحة لا زالت.

ذهبت إليه عشية اليوم التالي، ورغم ألفتي الحميمة مع البيت إلا أنني كنت أشعر بالحرج وأنا جالس بانتظاره في غرفته القديمة، وقد تحولت إلى غرفة للصالون يشغلها طاقم أوبيسون.

عانقني طويلاً، وارتجفت وهو يفلتني ثم يعاود عناقي. سألني عن أخباري، وقال إنه مشتاق للحديث معي طويلاً، وطلب مني أن أعذره لأنه ذاهب الليلة إلى القاهرة، حيث سيصطحب زوجته ـ التي حجز لها في الهيلتون ـ إلى سهرة في حي الحسين، التي سمعت عن سحره كثيرًا، وأكد على حضوري زفاف أخيه بعد غد، وقدم لي دعوة مطبوعة ببصمة الذهب.

وتركته.

تــرددت طويلاً في الذهاب إلى الحفل، حتى هاتفتني سـيدة قابيل وأكدت على الدعوة، وفاجأتني فرحة بأنها ستذهب هي الأخرى.

ـ نفسي أشوف الهيلتون، هو مش من حقنا برضه.

وضحكت.

ولأول مرة في حياتها تستخدم الكرسي المتحرك.

كانــت تجلس إلى ترابيزة، مع أختها الكبرى وأخيها، والــد محمد، لم أجد أحدًا أعرفه غيرهم، فجلست معهم، كــان محمد يتردد بين مائدتنا والكوشة، يأتي. يقف إلى جــوار أبيه ويضع يده على كتفيه، ثم يتركه ويعود إلى العروســين، يقــف وسطهما مصفقا، يردد الأغاني مع المطربين. بين هذا وذاك ترافقه زوجته الإيطالية، هيفاء، تــرتدى فســتان سواريه أسود لامع طويل، يكشف عن معظم صدرها وكل الظهر وبأسفله فتحة طويلة تمتد إلى ما بعد ركبتيها.

عزفت الموسيقى لحن ألف ليلة وليلة، ثم أطفئ النور وأضــيء فجــأة على راقصة تتوسط العروسين، راحت تنشــر حــركاتها حولهما، ثم جذبت إليها محمد ورقص معهــا، وانضــمت إلــيهما زوجــته، التي راحت تدور

بخصـــرها دورات متعاقـــبة أثارت تصفيق الجميع على إيقاعها، فيما كانت سيدة قابيل مندهشة، لكنها سعيدة.

توقــف الـــرقص وعـــاد محمد وزوجته، قدمني لها بالإيطالـــية، وقدمهـــا لــــي: سيلفيا مراتى، وربت كتفها العاري وضمها إليه. شدت على يدي بحرارة مبالغة، ثم جذبت محمد وعادت به إلى مكان العروسين.

افتـــتح البوفيه، وذهبت أملأ طبقًا لسيدة وكانت تشير لــــي علـــى بعض الأصناف، فأضعها في الطبق، حتى أشارت لي بالاكتفاء.

خفتـــت الأضـــواء وانســـابت الموسيقى ناعمة، كان العروســـان يرقصـــان وحدهما، حاول محمد دفع بعض الحاضـــرين بزوجاتهم ليشاركوا العروسين، لكن أحدا لم يستجب، فأخذ سيلفيا وانضم للعروسين، وكانت يده تروح وتجـــيء على ظهرها حتى المنتصف في حركات ناعمة وبطيئة، وكانت نائمة بنصف وجهها الأيسر على كتفه، وبين الحين والحين تقبل جانب رقبته.

*

حيــن وصلتُ كان المرض قد كنس دارهــا وقطع الطبيب ساقها اليمنى حتى الركبة، ونقلوا جسدها الهزيل، الــذي لم يبق من ملامحه القديمة إلا طوــله الفــارغ. إلــى الغرفة وهى تهــذي.. شافتني أمي، فهرعت إلى باكية.

مــثل فأر ملتاث، أكل السكر إصبع قدمها المجروح، وتسحبت الغرغرينة بســرعة مجــنونة نحو قدم عمتي.. زوجــة المرحوم محمد أبو سالم ــ وش الســعد عليه ــ الذى دخل بها وهــو لا يملــك غــير ســيارة نقل متواضــعة، تعمــل في نقل العفش داخــل الــبلد، وبعد العشرة فتح الله علــيه، فصار يمتلك أسطولاً صغيراً من عربات النقل ، يربط طيلة الوقت بين البلاد.

(إيجار إيه يا خايبة)!

رميت بصري نحوها، كان فمها خاليًا من الأسنان، وصدرها مجردًا من كردانه الذهبي الشهير، ومكان القرط الهلالي في أذنيها حلقتا خيط رفيعتان.

ـ رجلي يا ولاد.

واستدارت بوجهها ناحيتي. جذبتْ رأسي إليها وقبلتني، ثم همست:

ـ همّ قطعوها؟

سمعتها أمي، فبكت.

ـ يجبر خاطرك يابنى.. لو قطعوها قولي. أنا مش حاسة بيها.

أتى عمي. دفع إلى يد أمي بمظروف صغير وجلس لصق عمتي، انتحت أمي جانبا. فتحت المظروف، عدَّت ما به، وأغلقته ثانية. بان على وجهها مزيد من الهمّ، مالت على

أذني وقالت:

ــ تقدر تساعد بكام؟.

مــرت على جسدها أصابعه، وثمانية عيون صارت تجــزم أن مــا بينهما تخطى الغرف المكشوفة والأفعال المختلســة من بحر اليوم، واشتعل في دورة المياه. أكد الســاعي أنه رأى ساهر يخرج من دورة مياه السيدات، وأكد أحدهم أن زرار بلوزتها الأخير كان قد انفصل عن مكانــه عــند الصدر، وأنها كانت تستخدم دبوس مشبك لتخفى أخدودًا عميقًا بين كرتين شمعيتين، حتى أصغرهم صــرح بأنها لم تعد تمشي مثل بنت وأن عينيها صارتا منتفختين بالشبق.

كلهــم قالوا، ومن خلف قولهم هبت روائح الرغبات المكبوتة، تزفها الحسرة على اكتشافهم المتأخر لحقيقتها، كما أسرّوا لبعضهم، وأنهم كانوا مغفلين كل هذا الوقت، أو كمــا قالوا: صُمٌّ عُمْي، لا يملكون إلا ألسنة احترفت لعــق الأماني؛ فامتلأت عيونهم بالحسد المكتوم على ما فاز ساهر به، إلا عينا مصطفى مرزوق.

ــ مصــطفى بيحــب نوال، ولما زعلت مع خطيبها عرض عليها الجواز، لكن مصطفى ميملاش عنيها.

(قطع)

عـــبد المجيد رسلان وحده بين شوارع القاهرة يتفحص الناس

(1)

إنها آتية إليه مهرولة.

إنـــه كـــان فى انتظارها، وعلى أذنيه هيدفون يتصل بسلك رفيع إلى جيب الجاكت، ينقل إليه: عودونى عنيك أحبك.

(2)

إنهـــا تنظر إليه كمن يملك العالم، وتنظر إلينا بترفع شديد.

(3)

من أي نبت طلعت هذه الأجساد!

(4)

لحـــوم تتبدى بأحجامها الحقيقية، في مناطقها الأكثر إيروتيكـــية.. أي جنون هذا.. أي شيطان ألقى في بالهنَّ صورة الشوارع خالية من الذكورة، فخرجن هكذا.

(5)

محطـــات المترو على طول الطريق تحمل أرصفتها حكايات الحب. ياه.. كم سيّب الكلام الحلو من مفاصل، وفتح القلوب لهداهد بهيجة الألوان، قرت عليها وادعة.

(6)

تي شيرت قرمزي وإستريتش فضي، لامعان.

صبغة شفاه سوداء في نهر وجه ممتلئ بياضا.

صبغة شفاه في لون البن المحروق.

صبغة شفاه أحمر ميتالك.

أظافر يقسمها الطلاء إلى نصفين.

لمسة ماكياج خفيفة تمنح تفردًا مجاهرًا.

(7)

إنها تنظر إليَّ بقرف مبالغ فيه وأنا أحتوى تفاصيلها.

(8)

حـــتمًا ســـوف تحـــتفظ عيناك بواحدة منهن وتبادلها الحرائق سرًّا.

(9)

وكل يوم واحدة جديدة.

(10)

وهكـذا.. بضـغطة خفـيفة على زر الآلة التقطت الصورة:

الرجل في المقدمة لا ينظر لشيء.

المرأة من ورائه، بيدها علبة بيبسى، مرفوعة باتجاه شفتيها، وعيناها ملتصقتان بالفاترينات الفاخرة.

ومـن ورائهـا، بنت في العشرين تقريبا، تحدق في العالم بغضب.

(11)

وهكذا..

"تكتشف فجأة أنك ساذج.

وأنك مش فاهم حاجة.

لا عارف تحب ولا عارف تكره.

فـي كـل جملـة فيه كلمة بتوجعك، وتردك لجواك الملـيان بقلق عمره من عمر الأرض، قلق غامض. بس أنيابه مغروسة في لحمك.

هكذا..

العمـر بيتسرسـب وانت في مكانك واقف، مستسلم لهشاشـتك وخوفك، اللي أصبح زي السرطان بيهدد كل

شـــيء حوالــيك، بقيــت زي دمعة من دمعات برتولت بريخت؛ لأنك مش عارف تبقى سهم فى قلب الحياة اللي دايما بتخوفك.

الحياة اللي بتكره أمثالك، من زباين الأطباء النفسيين وجلسات العلاج الجماعي.

متخرج من الجامعة من عشر سنين ومش قادر تستقر في عمل، وأبوك زعلان لأنك ما اتوظفتش في الحكومة علشـــان تضمن معاش كويس، والحقيقة إنك كاره تبقى ورقة في دفتر لما يتملى يتحول مخازن.

سافرت زي كل المصريين اللي بيسافروا وما عملتش حاجــة. لا رصــيد فــي البــنك، ولا مشــروع يحقق خصوصيتك.

كل اللي يا دوب قدرت عليه.. تعمل شقة ، وندمان.. لأن أحمد صبحي يوم ما قالك: إنه مش ناوى يرجع من بــلاد بره إلا أما يرحّلوه أو يقفلوها في وشه.. هاجمته، وقلت له: إنت بليد وما عندكش دم.

رغم كل ده.. لسه عينيك بتدمع لما تشوف طفل يعيط أو عــيل صــغير بيشــحت لقمة، أو لما تزور الدكتور صاحبك في مستشفى الأمراض النفسية وتشوف مريض

نفسه فى سيجارة ممنوعة عنه.. تصور مجرد سيجارة!، وترجع كل اللي في بطنك لما تعيش موقف غير إنساني، السيد فيه هو القهر أو الحاجة.. يخنقك الزحام والصوت العالي، وكل ما حد يكشر في وشك قلبك يوجعك وتجيلك الأزمـــة إياها اللي كرهت السفر بسببها، وكرهتك بينك وبين نفسك في كل اللي زقوك ع الغربة أيامها وزينوها لك، رغم انك كنت سلطان زمانك.

مشــاكلك مـــع نفســك عَمّاله تزيد، وانت خايف من الجنون، مع إنك قريب منه، وعمال تقاومه بكل الطرق".

وكان الناس في بهو محطة مصر كتلة واحدة دائرية، تتراجع إلى الوراء بظهرها، فيتسع مداها لتحوش دخول عبد المجيد، تحول بين عينيه ولوحة مواعيد القطارات.

ثمـــة كائن معلق على عارضة حديدية، من تلك التي تحمــل ســقف محطـــة مصر، تحته مباشرة دائرة من عساكر تقبض بأياديها على مفرش من المطاط السميك، الكائن يأتي بحركات بهلوانية، يلف ساقيه حول العارضة ويدلى نصفه الأعلى ويهزهزه.

الكائن يرتدى قميصًا مفتوح الأزرار.

يشرب سيجارة.

يفرغ منها، ثم يلقى بالفلتر في وسط المفرش.

يمـــتطى العارضـــة مثل حمار، ويؤرجح فى الفراغ ساقيه.

يطلق صفيرًا متواصلاً من شفتيه ويحثّ المشاهدين ــ المتجمعين تحته ــ على الترديد وراءه بحركات متواصلة من إحدى يديه.

الكائـــن يمدد جسده على العارضة وينام، تاركًا عبد المجيد يحدق فيه.

وكانـــت امرأة عبد المجيد رسلان في انتظاره، أغلق باب الشقة وارتكن بظهره إليه.

تتأجج عينيه بالأجساد الطازجة.

تـــتأجج بالجسد المعلق على عارضة في سقف محطة مصر.

لـــم يتـــناول معها العشاء، لأنه كان راغبا في القيء، فتناولـــت عشـــاءها وأعدت له كوب ينسون، ارتاح بعد ارتشافه.

ضـــغط على مفتاح التليفزيون، فتتابعت الصور، ظل إصـــبعه يقلـــب بين القنوات، حتى قر على فيديو كليب

اســتقدم مخرجه الموديلات المصاحبات للمغنى من بلاد أوربية عبر شبكة الإنترنت.

وجلس يتفرج.

(مزج إلى)

" ساهر حشيش ونوال فى شوارع القاهرة "

- لم تكن القاهرة جميلة من قبل هكذا.

ـ لا.. لم تكن.

الشــوارع خالــية، والسيارات القليلة المتحركة فوق الأســفلت النظيف تمضى في حياء، حريصة ألا تخدش هذا السكون البديع.

لم تكن هناك عين، ولم يك ثمة قلق.

فقط.. كانت القاهرة ببهائها الساحر الذي لا يعرفه إلا من خبرها ساعة سحر كهذه.. مدينة عتيقة، صلبة، حوت فــي جوفها عصوراً وناسًا ذوبتهم فيها، فراحوا، وبقيت هي.

الــناس الآن رهيــنو البيوت، ماكثون وراء الأبواب والشبابيك المقفلة في إحكام مبالغ فيه.

لا.. لــم يكن ساهر يتصور أن هذا العملاق يمكن أن

يغفو هكذا، فلا تكون هناك عيون متلصصة توقف الفعل عن الاكتمال.

ــ إنت بتضحك قوى كده ليه؟.

ــ أصلي مبسوط.

ــ إنت فرحان؟

ــ لأ .. مبسووووط.

ــ عينيك حمرا زى الدم.

ــ والله!

ــ رجليك تقيله قوى.. إنت تعبان؟

ــ مش عارف.

ــ اعدل رقبتك شوية.

ــ أصل الجو جميل.. جميل قوى.

ــ تعرف لو ماكنتش جيت النهاردة.

عــند المغرب استحلفته زوجه ألا يخرج اليوم؛ لأنه يوافق عيد زواجهما، فنظر إليها ساخرًا وأكمل ملابسه، فيما راحت يائسة تستكمل حلقات المسلسل التليفزيونى.

إنهمـــا الوحـــيدان في شوارع لم يبق منها غير هلال واهـــن يختبـــئ خلف طبقات الضباب، والوجوه الواقفة خلـــف النوافذ تشير إلى مروقهما وتحتمي بالظلام، فيما كانـــا يفـــوزان كما لم يفوزا يوم أن دبرا مكاناً لاختلاء مطمئن، في شقة صديقتها المطلقة، ابنة الرجل الذي قرر إراحـــة رأسه بعد عام من الزواج بامرأة، لم تقبل إلا أن تكـــون خـــيوط الحياة في يديها، ولم يعد البيت يشكل له أكـــثر مـــن لوكاندة يحطّ بها جسده بالليل، ويتركها مع اشـــتداد الصـــباح، بعد أن يخلف مصروف البيت تحت مخدة كنبة لا تسع أكثر من واحد!

* * *

نزلـــت دعاء في دار السلام، وأنا تساءلت: هل يمكن للجســـد الريّان الجميل أن يمنح بهجة كهذه، أم أن الأمر رهـــن بالأقمشة الناعمة والمخملية، بألوانها التي لم نكن نـــرها من قبل.. كمْ عذّب الفوشيا من أجيال، وأشعل في الصدور حكايات، فأسقط رجالاً في هوته، ذهب الفوشيا إذن وجاء الـــ anti fashion.

* * *

أنـــا كتبت: سهام رمت محمد قابيل بسهامهما وتركته ينزف فى العراء.

ورأيت شيرين في بلاد بعيدة، ولم أكلمها.

ولـــم أر حـــامد منذ عودتي إلا مرة واحدة، وكنت قد عرفـــت وأنـــا بعيد أنه: افترق وفتاته.. لم يحكِ لي ماذا جرى ولم تك به رغبة، وكلما انحرفت بالكلام نحوها فر منى ، واغتمّ وجهه، وفى مدينة صغيرة كهذه كان حتمًا أن أراهـــا، لكـــنى لم أعثر لها على طرف، كأنها بخار تبدد، كأنها لم تكن موجودة من الأصل، ماذا جرى بينهما ليصـــبح الحال هكذا، كيف انطفأ النور فى شباكهما ولم أعــد ألمح حتى خيالها يتحرك خلف الزجاج، فتاة كانت لهـــا ضفيرة طويلة تتدلى خلف ظهرها، كانت تعيش فى هــذا البيت وحدها مع أبيها الذى نذر حياته لها بعد وفاة أمها، ماذا جرى؟!

وعــبد المجــيد قـــال: سوء حظ يصاحبني.. امرأتي حســـود، تحسب المال الآتي آخر الشهر، فيأتي ومعه ما يكنسه.. تستكثر طعامي فيفرغه جوفي.

وانهار باكيًا.

فقال ساهر:

- غيِّر عتبتك!

ثم قال:

- كلما قابلت نوال عرفت الفرق بين امرأة وامرأة.

وقال لعبد المجيد: لا بد أن تحب.

وفى الغرفة المجاورة لغرفتى، مات الليلة جدي.

مـــاء وضوء العشاء التي حرص عليها في موعدها مازال يملأ وجهه القرير نداوة.

أتشبث بكفه، أمسد وجهي بخضرة عروقه التي كانت نافــرة، أبوسها حذرًا ألا يطولها ماء حزني، الذي تحرر وســاب فـــي نهير متصل، شق طرقة من باب غرفتي القديمة إلى حفرة قبره، على جانبيها اصطفت وجوه من ســبقوه، مـــن حملونـــي بإشاراتهم المكتنزة ورحلوا في صمت الواثقين، العارفين سكتهم.

مات الليلة جدي.

وعيناي الممتلئتان لم تفارقا الباب، وأصوات مغسليه تتســحب مـــن ورائه، تنقل إلى الوقت البكر المتبقي من مكوثـــي قرب غرفة ممتلئة بحشرجة صوته، وهو يوقظ

صباحاتي البعيدة.

كلهـــم يعرفون أنى هجرت هذه الغرفة بعد وفاة عمى الأصـــغر، الذي شاركنيها شهوره الأخيرة ـ إبان خلافه مع زوجته ـ فكيف وبكل بساطة يقررون هذا؟!

أنا الوحيد في العائلة، الذي أملك غير جدي نسخة من مفاتـيح البيــت، ألمحوا لي عند الفجر أن أسلمها لعمى الأكبر.

ســيغلق البيت إذن! ولن تكون هناك بعد اليوم غرفة كهذه.

ـ إذن قل إلى أين!؟

لــم يكن يسكن البيت غيري وهو، حتى بعد سفري بقيت الغرفة غرفتي.. الغرفة التي انفتح بابها وبان جسده متدثرا بالغياب، والمكتب القديم والكنبة البلدي من وراء المغسلة يبدوان كسحابة مرت مسرعة، والمغسل يستخدم كرسي الشباك ويضع عليه حاجاته.

والطـــرقة الطويلة في مدخل البيت تبتلع الصوت قبل بلوغه الغرفة..

كانت..

تستصفى صرير بابه المزعج..

كانت..

سكة ظليلة بين ضوء الشارع المباغت ومسقط الضوء ــ مــن فــتحة السلم المطلة على السماء ــ عند الباب.. هكــذا رأيــت العالم حين لاعبني الاكتئاب، وأشار على عمــى الأصــغر بهــاــ الغــرفة، فوجدتها فكرة لائقة، خلصتني من ضيق لم أكن أعرف له سببًا.. الآن أعرف الأسباب جيدًا.. نعم.. أعرف.

إنــه عمى الذي ساعدني في دروس الرياضيات في الإعداديــة، وهى الغرفة التي جاءت لي بالدنيا خالصة، وحطتها بين كفى.

كــان البيت يتباعد من خلف، ونحن نتسابق إلى حمل الــنعش، وبيــن اللحظة وأختها ألقى عليه نظرة، وكلما احتكــت عينــي بواحــد من أعمامي أرى دموعه تشق الســكة.. الســكة التي اصطفت على جانبيها وجوه من حملوني بإشاراتهم المكتنزة ورحلوا في صمت الواثقين.. العارفين.

هكذا..

مــن مــنطقة بين المرئي واللا.. فَرّ مني ما يصلني بالحاضــرين، مــا يجعــل العين شاخصة بالمكتوب في سـطور الـيوم.. بــدأ من أطراف القدمين، سرى في الســاقين، الفخذيــن، أطلقهــم مني، قبض على البطن.. رجــرج الصــدر، كأنــي بطائرة حال صعودها. أقفلت العينين.. اصطكت الأسنان ببعضها، وتلك المضغة القارّة بين الضلوع تنتزع، ترتقى طريقًا طالعًا، فسكت شهيقي وسقط المحشو بعظم الرأس، سائبًا من منخاري.

وكــان قد أتاني ـ آخر الراحلين ـ محرمًا، حدثني فــرحًا عــن أصــحابه الجــدد، وحدثته عن طريق لا يطاوعني، ولم يقدر يومًا على اجتراح صمتي، فأعطاني لفة بداخلها ملابس إحرام وباسني مودعًا.

اصــطدمت بظهر الكرسي الناتئ، كهربتني حمحمة الحاضــرين، جذبتني من صعودي.. دعكت عيني.. لم أجده بينهم ولم أجد اللفة التي أعطانيها، وكان صوتي لا يخرج، ولكن داخلي انطوى على نية البحث عنه.

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

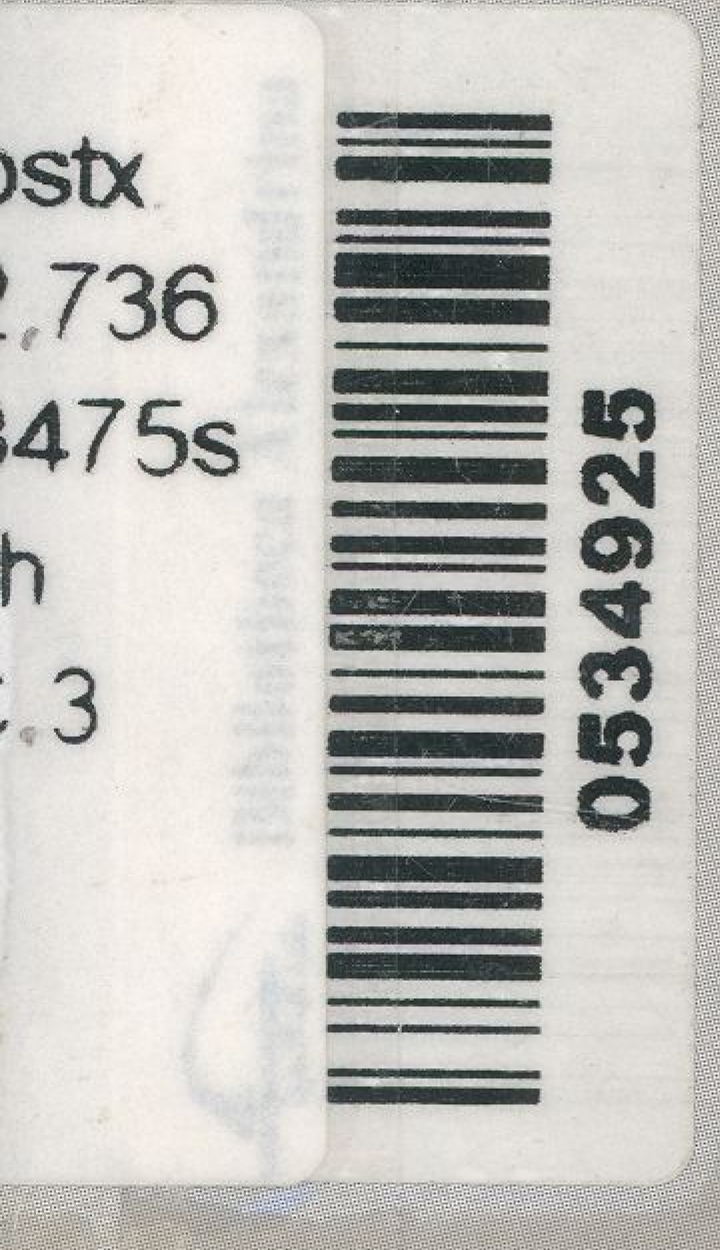
٢٦٨- مكاشفات شخصية .... شعر : بهاء جاهين
٢٦٩- أقانيم .... قصص : اسماعيل البنهاوى
٢٧٠- مرايا الذات الأخرى .... رحلة : صبرى حافظ
٢٧١- ديوان غزالى .... كابتن غزالى
٢٧٢- الصنم .... رواية : أشرف الخمايسى
٢٧٣- منازل القمر .... قصص : سُمية رمضان
٢٧٤- مواقيت البهجة .... قصص : عزت القمحاوى
٢٧٥- عضم خفيف .... شعر : سعدنى السلامونى
٢٧٦- حافة الود .... رواية : نبيل نعوم
٢٧٧- صانع الصدمات .... قصص : أسامة خليل
٢٧٨- السبعة .... شعر : عادل عزت
٢٧٩- عشرين سنة على سلم المترو.. شعر : حمدى عبد العزيز
٢٨٠- ضرورة الكلب في المسرحية... شعر : جرجس شكرى
٢٨١- نجع السلعوة .... رواية : أحمد أبو خنيجر
٢٨٢- طائر الفخار .... شعر : محمود نسيم
٣٨٣- كائنات هشة لليل .... رواية : صلاح والى
٢٨٤- قبض الريح .... قصص : شحاته عزيز جرجس
٢٨٥- أغادر جسدى .... شعر : أحمد السواركه

٢٨٦- بعدين .... شعر : صلاح الراوى
٢٨٧- الوفاة الثانية لرجل الساعات..... رواية : نورا أمين
٢٨٨- عبير الكمنجات .... شعر : عزت الطيرى
٢٨٩- نتهجى الوطن فى النور ....شعر : سمير الفيل
٢٩٠- رائحة النعناع .... رواية : حسين عبد العليم
٢٩١- امرأة يروق لها البحر.... شعر : عبد الناصر هلال
٢٩٢- قوة الحقائق البسيطة........... شعر : عزت عامر
٢٩٣- شهيد الوطن ..... شعر : متولى عبد اللطيف
٢٩٤- الكوشة .... رواية : أمين ريان
٢٩٥- عالم تانى .... شعر : عمرو حسنى
٢٩٦- جاليرى يعرض صوراً مسروقة شعر : أحمد مرسى
٢٩٧- حديث الحجرات .... قصص : مجدى حسنين
٢٩٨- أبناء الخطأ الرومانسى............. ياسر شعبان
٢٩٩- بيت النجار .... عبد الحكيم حيدر
٣٠٠- موسيقيون لأدوار صغيرة.......... فتحى عبد الله
٣٠١- بدرية الاسكندرية .... حسنى بدوى
٣٠٢-المسروق فضاؤه .... يوسف وهيب
٣٠٣- طريق للحفاة .... محمود قرنى
٣٠٤- - قبل وبعد ....توفيق عبد الرحمن
٣٠٥- حياة عادية .... محمد صالح
٣٠٦- أحلام بدرية .... على الشوباشى

٣٢٤- الوقوف على الأعتاب ....يحيى شرباش

الحلم صار بنتاً، على صدرها ترسو وردة الوقت، وأنت الملدوغ بالعيب واللايصح وعشرة أرفف مملوءة بتاريخ الإنسانية، وسيدة الدار صامتة، فضحتها مشاكلة ادعتها بهتاناً، فأقامت ودها مع قائمة منقولات سودتها أصابع خبيرة بتاريخ النذالة، بعرض صفحتي فلوسكاب، فقلت: للمرأة مملكتها.





ostx
2.736
3475s
h
.3
05334925

جنيه واحد

الأمل للطباعة والنشر